الباب الأول

المحجزة

- تعريفها
- شروطها
- حكمتها

obeikandl.com

الفصل الأول
تعريف المعجزة

ـ المعجزة في اللغة

المعجزة اسم فاعل مأخوذ من الإعجاز مصدر أعجز، وهي عبارة شائعة على التوسع والاستعارة والتجوز، فإن المعجز على التحقيق خالق العجز في غيره، وهو الله تعالى، كما أنه هو المقدر لأنه فاعل القدرة في غيره فالإعجاز وصف المتحدى أسند إلى ما تحدي به مجازا من قبيل إسناد الشيء إلى سببه .

وقيل إن التاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية كما في الحقيقة، وقيل للمبالغة، كما في العلامة والنسابة والراوية .

وقيل إن في إطلاق لفظ «معجزة» مجازا وتوسعا من وجه أخر .

فيرى بعض العلماء ومنهم الباقلاني والجويني أنه لا يصح وصف الأمر بأنه معجز إلا إن صحت القدرة عليه [1] لأن العجز عن العجز غير متصور فالعجز يفترض منطقيا قدرة سابقة عليه ومن ثم فإن معجزة النبي: «مما لا يدخل تحت قدر العباد لامتناع كونها مقدورة لهم .... لا لعجزهم عنها ومنعهم منها» .

ومن ثم فإطلاق لفظ معجزة على خوارق الأنبياء المؤيدة لهم إنما هو من باب المجاز .

ويستدل الباقلاني على ذلك بأنه لوجاز وجود العجز عن ما يستحيل أن يكون مقدوراً لهم لصح وصفهم بالعجز عن ذات القديم سبحانه، وذات صفاته

---

(١) من المحال «أن يقال فى هذا الفصل إن العاجز يعجز عن ما يقدر عليه غيره على التحقيق من الخلق، لأن المقدور الواحد لا يصح أن يكون مقدورا لقادرين محدثين حتى يصح أن يقدر عليه أحدهما ويعجز عنه الآخر ..... ومتى قيل (إن زيداً يعجز عما يقدر عليه عمرو) و(أنا عاجز عما أنت عليه قادر) فالمراد به على التحقيق أن زيداً يعجز عن مثل ما يقدر عليه عمرو لا عن نفس مقدور عمرو لأن قدرته عليه وعجزه عنه محال فوجب أن يعلم أن هذا معنى وصف العباد بأنهم يعجزون عن آيات الرسل وعن مثلها

الباقلانى البيان ص ١٢

الذاتية ووصفهم بالعجز عن إبداع الأجسام واختراع الأنام وغير ذلك من الأجناس التي لا يصح أن يقدر عليها إلا رب العالمين .

ويؤكد الباقلاني على ذلك بأن القديم سبحانه إذا قدر على خلق الشيء وجب كونه قادرا على خلق ضده ونقيضه، وإذا ثبت ذلك، وثبت أنه سبحانه قادر على أن يعجز الخلق عن إظهار المعجزات وفعل الآيات، وجب أن يكون إيضا قادرا على أن يقدرهم على ذلك بدلا من العجز عنه لأن ما قدر على أن يعجز عنه قدر على الإقدار عليه بدلا من العجز[1].

وبالطبع فإنه لا يخفى ما في كلام الباقلاني هنا من مخالفة للواقع المشاهد، فمن المعجزات ما كان منع [2] من قدرة كانت من قبل كعصمة الله تعالى نبيه ﷺ من القتل كما أن منها مالا قدرة عليه أبداً كالقرآن الكريم .

بل إن الباقلاني يناقض نفسه في موضع آخر من كتاب البيان حين يذهب إلى أنه لا فرق بين المعجزة والسحر على الإطلاق إلا بالدعوى والتحدى[3]

وأما قول الباقلاني السابق الذكر: «إن القديم إذا قدر على خلق شيء قدر على خلق ضده ونقيضه» فلا يصح الاستدلال به على أن المعجز هو «ما لا يدخل تحت قدر العباد» فلسنا في حاجة إلى العلم بأنه تعالى قد خلق شيئا حتى نعلم أنه قادر على خلق ضده ونقيضه، بل قدرته تعالى مطلقة، ولا يحدها شيء. ، لكنه تعالى يقدر ولا يفعل لحكمة، فهو يقدر على خلق المعجزة على يد الكاذب، ويقدر على إقدارنا على معارضة النبي الصادق ولكنه لا يفعل لحكمة .

---

(١) انظر الباقلاني : البيان ص ٨ : ١٣

(٢) لقد اختلف العلماء حول ما إذا كان العجز صفة عدمية أو وجودية ويجيب الطوسي على هذا الخلاف إجابة موفقة حين يقول «إن كانت القدرة عبارة عن سلامة الأعضاء فالعجز عبارة عن آفة تعرض للأعضاء ويكون حينئذ وجودياً والقدرة أولى بأن لا تكون وجودية،لأن السلامة عدم الآفة...أما إن كانت القدرة هيئة تعرض عند سلامة الأعضاء يعبر عنها بالتمكن أو بما هو علة له،فالعجز عدم تلك الهيئة فالقدرة وجودية والعجز عدمي». الطوسي : تلخيص المحصل ص ١٠٧ وفي ذلك أيضا يقول الآمدى: إن المعجز إن كان عدميا فالمعجز عدم خلق القدرة فلا يكون فعلا،وإن كان وجوديا فالمعجز هو خلق العجز فيهم فيكون فعلا. انظر ابن كمال باشا:مجموعة الرسائل:رسالة فى المعجزة جـ١ ص١٣٩ والجوينى:الإرشاد ٢٦٠ :٢٦١ فالأمر إذن نسبى، ويعتمد على الزاوية التى ينظر منها إلى الموضوع والخلاف شكلى ولا أهمية له،والمهم أن المخاطبين بالمعجزة لا يأتون بمثلها ويشعرون فى قرارة أنفسهم باستحالة ذلك منهم .

(٣) انظر الباقلاني: البيان ص ٤٧ ، ٩٤ : ٩٧

وانظر شروط المعجزة الشرط (١٩) اشتراط الادعاء والتحدى .

مصطلح معجزة :

إذا كنا قد أوضحنا أن في استخدام مصطلح«معجزة»توسعاً ومجازاً وإذا كانت صيغة «عجز» قد وردت في القرآن الكريم ستا وعشرين مرة بتصاريفها المختلفة [١] ولم تحمل في أي مرة من هذه المرات أية دلالة إصطلاحية .

بل ان المعنى الاصطلاحى عبر عنه القرآن بصيغ أخرى مثل«الحق» «البينات» «الآية» «السلطان» «البرهان» «الفرقان» .

قال تعالى [٢] **﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين،قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا﴾** . وقال [٣] **﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾** وقال [٤] **﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾** وقال [٥] **﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾**وقال [٦] **﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾** وقال [٧] **﴿فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه﴾**وقال [٨] **﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾** . وقال [٩] **﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾** .

وعبرت الترجمة العربية للعهد الجديد من الكتاب المقدس عن المعنى الاصطلاحي بصيغ مثل «آية» و«عجيبة» و«قوة» و«عمل» .

مثال ذلك: ما ورد في إنجيل متى على لسان الكتبة والفريسيين [١٠] عندما قالوا: «يا معلم نريد أن نرى منك آية، فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبي» [١١]

وورد كذلك في إنجيل «متى» على لسان المسيح عليه السلام: «كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم، يارب يارب أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا

---

(١) انظر[المائدة:٣١][الجن ١٢]- [فاطر:٤٤] [الأنفال:٥٩] [هود:٧٢] الذاريات:٢٩] [الشعراء:١٧١] [الصافات:١٣٥] [القمر:٢٠] [الحاقة:٧] [الحج:٥١] [سبإ:٥، ٣٨] [الأحقاف:٣٢] [التوبة:٢ ، ٣] [الأنعام:١٣٤] [يونس:٥٣] [هود:٢٠، ٣٣] [النحل، ٤٦] [النور:٥٧] [العنكبوت:٢٢] [الزمر:٥١] [الشورى:٣١] .

(٢) يونس : ٧٦ ، ٧٧. (٣) الروم : ٤٧ . (٤) الإسراء : ١٠١ . (٥) البقرة : ٨٧ ، ٢٥٣ .

(٦) البقرة : ٥٣ . (٧) القصص : ٣٢ . (٨) النازعات : ٢٠ .

(٩) الذاريات : ٣٨ . (١٠) الكتبة والفريسيين: هما فئتان من رجال الدين اليهودى .

(١١) متى الأصحاح(١٢) آية (٣٩).

شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟» [1].

أما الصيغة الثالثة والأكثر شيوعاً فهي كلمة«عجيبة»ونجد هذه الاستعمالات الثلاثة معا في سفر أعمال الرسل، ففيه « . . . . يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون» [2] .

والصيغة الرابعة وهي كلمة «عمل»فنجدها على سبيل المثال في إنجيل يوحنا على لسان المسيح عليه السلام في قوله [3]: «من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضا ويعمل أعظم منها ».

فيتبين لنا من ثم مدى القصور في استخدام لفظة «معجزة» للتعبير عن المعنى الاصطلاحي المطلوب .

إلا أنه لا يخفى ما في مصطلحات مثل «خارق للعادة»، «عجيبة» ،«عمل» ، «قوة»، «آية»[4] «حق»، «بينة»، «سلطان»، «برهان»، «فرقان»، من قصور.

فكل هذه المصطلحات تتميز بالعموم، وخوارق الأنبياء الدالة على صدقهم إذا وصفت بذلك فينبغي أن تقيد بما يختص بها.

ثم إنه «وإن كان اسم«المعجزة» يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة

---

(١) متى الأصحاح السابع آية (٢١ ، ٢٢) . (٢) أعمال الرسل : الأصحاح الثانى آيه (٢٢) .

(٣) يوحنا الأصحاح الرابع عشر آية (١٢) .

(٤) ويفرق بعض العلماء بين الآية والمعجزة بأن «الآية تدل على صحة ما جاء به [النبى] وإن لم يتحد بها والمعجزة مشروطة مع ذلك بالتحدى » .

السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٧٥

ويرى بعض آخر أن الآية هى ما اصطلحنا على تسميته بالمعجزة المعنوية وأن المعجزة هى ما اصطلحنا على تسميته بالمعجزة الحسية

انظر حسن حنفى :من العقيدة إلى الثورة حـ٤ ص٧٣ و انظر تعريفنا للمعجزة المعنوية فى الفصل الأول من الباب الثالث

المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره» [1] إلا أنه قد تطور لغويا حتى أصبح يدل على آيات الأنبياء وبراهينهم دلالة لا لبث فيها، وذلك شأن اللغة التطور.

يقول ابن تيمية [2] «لكن كثيراً من المتأخرين ... يجعل المعجزة للنبي...» ومن ثم فلا مشاحة في الاصطلاح .

وإذا كان القرآن الكريم بل والكتاب المقدس لم يطلقا على المعجزة اسما واحداً ولكنهما أطلقا عدة إطلاقات كما سبق بيانه، وكل منها يرى المعجزة من منظور معين، بملاحظة صفة من صفاتها فلا مانع إذا من تجاور كل هذه الإطلاقات معا .

وخاصة أن «مصطلح آية الذي أكثر القرآن من ذكره قد يكون الهدف منه الإشارة إلى أن الغرض الأصلي من هذه الخوارق هو الدلالة على صدق الأنبياء لا إعجاز البشر فهي آية وعلامة صدقهم أولاً وعجز الناس عن الإتيان بمثلها غرض ثان لا أول جاء عن طريق التبع لا عن الأصل.

ثم إنها معجزة بالنسبة للبشر لا لله سبحانه وتعالى فهي بالنسبة لله سبحانه وتعالى آيته على صدق أنبيائه ومن ثم ذكرها باسم الآية، وهي بالنسبة للبشر معجزة عجزوا عن الإتيان بمثلها لذا ذكروها باسم المعجزة .

على أن الفلاسفة يذكرونها أكثر ما يذكرون باسم الخوارق لأنها الكلمة التي تطرد عندهم مع السبب أو العلة » [3] .

المعجزة في الاصطلاح :

يعرف السنوسي المعجزة بقوله «هي فعل الله سبحانه الخارق للعادة المقارن لدعوى الرسالة متحدى به قبل وقوعه غير مكذب يعجز من يبغي معارضته عن الإتيان بمثله » [4] .

---

(١) ابن تيمية :قاعدة شريفه ص ٥ .

(٢) السابق ص ٥ .

(٣) عبد الفتاح الفاوى:النبوة بين الفلسفة والتصوف (رسالة دكتوراه) ص ١٩٣ .

(٤) السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٣٨ .

ويعرفها القاضي عبد الجبار بأنها الفعل الذي يدل على صدق المدعي للنبوة وهو على أوصاف وشرائط، أحدها: أن يكون من جهة الله تعالى أو في الحكم كأنه من جهته، والثاني: أن يكون واقعا عقب دعوى المدعي للنبوة والثالث: أن يكون مطابقاً لدعواه، والرابع: أن يكون ناقضا لعادة من بين ظهرانيه، ثم إنه لا بد من اعتبار أن يكون من جهة فاعل عدل حكيم أوفي الحكم كأنه من جهته [1].

ويعرف الإيجي المعجزة بأنها ما قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله ولا بد لها من شروط سبعة: أن تكون من فعل الله أو ما يقوم مقامه، أن تكون خارقة للعادة، أن تتعذر معارضتها. أن تكون ظاهرة على مدعى النبوة أن تكون موافقة للدعوى، ألا تكون مكذبة للنبي، ألا تتقدم على الدعوى [2].

ويجعل الجويني المعجزة أنها: فعل لله، خارقة للعادة متحدى بها، تظهر على وفق الدعوى، لا تتقدم على الدعوى، لا تظهر مكذبة للنبي [3].

ومن ثم يتبين لنا أن المعجزة في الاصطلاح لها تعريفات كثيرة مختلفة، ويرجع هذا الاختلاف إلى الاختلاف حول شروطها وفروقها عن غيرها من أشباه الخوارق.

وبعض هذا الخلاف شكلي فكثير من الشروط التي ذكروها يؤول بعضها إلى بعض[4] بل إن ذلك قد نجده في التعريف الواحد فيذكر عدة شروط وهي في الحقيقة شرط واحد.

كما يرجع هذا الخلاف أيضا إلى عدم فهم طبيعة شرائط المعجزة «فشرائط المعجزة على نوعين أحدهما ما لابد منه في تحقيق ركنها وثانيهما ما لابد منه في دلالتها على صدق من يدعي النبوة [5].

---

(١) انظر القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٨: ٥٧١.

(٢) انظر الإيجي: المواقف ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠. (٣) انظر الجويني: الإرشاد ص ٢٦١ ـ ٢٦٦.

(٤) يقول ابن كمال: «إن اشتراط تعذر المعارضة يغني عن اشتراط كون المعجز خارقاً للعادة لاستلزام أحدهما الآخر، فلا وجه لعد كل منهما شرطا على حده»

(انظر ابن كمال: رسالة في حقيقة المعجزة ودلالتها على صدق مدعي النبوة، ضمن مجموعة الرسائل جـ١ ص١٤٠. (٥) ابن كمال: السابق نفس الموضع. فمطابقة الدعوى مثلا معتبرة في طريق معرفة صدق مدعي النبوة لا في حد المعجزة كما توهم بعض الناظرين في هذا المقام السابق جـ١ ص ١٤٨.

ويرجع هذا الخلاف أيضـا إلى الخلط بين الشرائط والقرائن فمن الـقرائن ما قد يتخلف أحيانا ولا يفقد ذلك المعجزة معناها ومن القرائن ما لا يتخلف أبداً عن المعجزة وإن لم يدل عليها دلالة قطعية لكونها قرائن مشتركة بين المعجزة وغيرها .

ومن ثم فيمكننا تصنيف كل ما ذكره العلماء من ذلك إلى أقسام:

١ ـ ما لا بد منه في تحقيق ركنها :

وهذا القسم يشمل :

(أ) أن تكون المعجزة أمرا خارقا للعادة خرقا حقيقياً

وهذا هو نفس اشتراطهم:

ـ أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه

ـ أن لا تكون من الصناعات المكتسبة.

ـ أن تكون لغير حذق في الصناعة.

ـ أن لا تعارض.

ـ ألا تظهر على يد مدعي النبوة كذباً .

(ب) أن تحدث على يد مدعي النبوة .

٢ ـ ما لابد منه في دلالتها على الصدق :

وهذا القسم يشمل :

أ ـ أن تكون المعجزة مطابقة للدعوى.

ب ـ ألا تظهر مكذبة للنبي.

ج ـ ألا تتقدم المعجزة على الدعوى.

د ـ ألا يتعارض الإعجاز الحسي مع الإعجاز المعنوي.

هـ ـ أن تكون من حسن ورجحان.

و ـ عدم الاعتماد على مساعدة المخاطبين في تقديم ما يصعب تقديمه.

٣ ـ قرائن قد تتخلف عن المعجزة :

وهذا القسم يشمل :

أ ـ عدم معرفة النبي السحر.

ب ـ أن تكون المعجزة جهرة أمام الجميع.

٤ ـ قرائن مشتركة بين المعجزة وبين غيرها :

وهذا القسم يشمل :

أ ـ أن تقع على يد فاضل خير.

ب ـ ألا تكون من الصناعات المكتسبة بالتعلم.

٥ ـ اشتراطات نرفضها :

ويشمل ذلك اشتراطهم :

أ ـ ألا تتأخر المعجزة الحسية على الدعوى.

ب ـ ألا يكون الخارق في زمن نقض العادات.

ج ـ اشتراط التصريح بالتحدي.

د ـ ألا تفتقر إلى آلة.

هـ ـ أن يكون الرسول حاضرا.

وأرى أن التعريف الصحيح للمعجزة هو أنها :أمر خارق لعادة عامة الخلق أجمعين يجريه الله على يد مدعي النبوة تصديقاً له .

ـ وقولنا «أمراً» تجنبا لذلك الخلاف الشكلي الذي وقع فيه المتكلمون من أنه هل المعجز كما يكون بالفعل يكون بعدم الفعل ؟ أم أن المعجز إنما يكون في الفعل فقط ويؤول غيره إليه ؟

ـ وكونها خارقا لعادة [illegible] جمعين أى دون خاصتهم وهم: الملائكة والأنبياء والأولياء فقد تكون خارقة لعادتهم وقد لا تكون .

ـ واستثنا[illegible] الملائكة لأن الله تعالى قد جعلهم الأسباب في كثير من معجزات

obeikandi.com

إلا أنه لم يثبت أنهم كذلك فيها كلهـا فقد يكون هناك من المعجزات ما هو خارق لعادتهم.

ـ واستثناء الأنبياء لأن المعجـزات إنما تحدث على أيديهم. وقد يشارك بعضهم البعض في بعضهـا إلا أن ذلك لم يكن دائما فقد تكون معجـزة النبي خارقة لعادة غيره من الأنبياء .

ـ واستثناء الأوليـاء لأن كراماتهم كالمعـجزات في خرقها للعـادة وقد يشارك الأولياء الأنبياء في بعض الخوارق ثم إن كرامة كـل ولي هي معجزة لنبيه لأنها لم تحدث له إلا بفضل اتباعه للنبي وإن لم تكن كل مـعجزة لنبي كرامة لولي ومن ثم فقد تكون معجزة النبي خارقة لعادة الولي وقد لا تكون.

ـ وكونها «أمـراً خارقا لعادة عامـة الخلق أجمعين» المقصـود به أيضاً عادتهم «في أنفسـهم أو في غيرهم» لأن الإسراء مـثلا وإن لم يكن خارقـا لعادة الجن في أنفسـهم، وإن لم يكن خارقا لعـادة الإنس في غيرهم، إلا أنه خـارق لعادة الإنس والجن في الإنس .

ـ وكونها تجـري على يد النبي، يخرج الخوارق العـامة التي لا تكون على يد أحد من الخلق كخـلق السموات والأرض مثلا. . ويخـرج الكرامة التي تكون على يد الولي. . .

ـ وكونهـا تصديقاً له يخرج الخـارق غير المطابق للدعوى أو السـابق لدعوى النبوة ويخرج الخارق المكذب للنبي .

وبيان ذلك فيما يلي :

الفصل الثاني
شروط المعجزة

وضع العلماء للمعجزة شروطا من أهمها :

١- أن تكون المعجزة خارقة للعادة :

والعادات على ضروب فمنها عادة يستوي فيها جميع الناس في جميع الأزمان والأمصار، ومنها ما ينفرد به بعض الناس دون بعض، فيكون عادة لهم دون غيرهم، ومنها ما يكون عادة لأهل عصر دون غيرهم. أو لأهل مصر دون غيرهم، ومنها ما يكون عادة للملائكة دون غيرهم، أو عادة للجن دون غيرهم أو عادة للإنس دون غيرهم، فلا يجب أن يكون ما خرق عادة قبيل أو طائفة خارقا لعادة غيره.

ومن ثم فيرى الباقلاني بناء على هذا الأصل أن يكون خرق العادة بالشيء الذي يفعله الله تعالى إنما هو خرق لعادة جميع القبيل الذي يتحداهم الرسول بمثله، ويحتج به على نبوته، فإن أرسل ملكا إلى الملائكة أظهر على يده ما هو خرق لعادتهم، وإن أرسل بشرا أرسله بما يخرق عادة البشر، وإن أرسل جنيا أظهر على يده ما هو خارق لعادة الجن[١] .

ويقول الباقلاني في موضع آخر[٢]: «إن المعجز لا يكون عندنا معجزا حتى يكون مما ينفرد الله عز وجل بالقدرة عليه ولا يصح دخوله تحت قدر الخلق من الملائكة والبشر والجن»

وأرى الصواب أن يكون المعجز خارقا لعادة الإنس والجن أي خارجا عن قدرتهم أبداً، ولا يشترط كونه خارقا لعادة الملائكة .

وذلك لأن قدرة الجن معلومة للإنس وقد سخر بعض الإنس الجن فأمكن التفريق بين ما هو من فعل الجن وما يخرج عن قدرتهم، ثم إنه إذا لم تخرج المعجزة عن قدرة الجن فسيحدث اللبس بين ما هو معجز وما هو من فعل الجن

---

(١) انظر : البيان ص ٥٥ . (٢) السابق ص ٨ .

ثم إن الجن من أمة الدعوة، قال تعالى[1] ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾. وقال[2] ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾.

وإذا كان الجن من أمة الدعوة فلا بد أن تكون المعجزة معجزة بالنسبة لهم حتى تقوم عليهم الحجة.

وأحب أن أضيف هنا أنه إذا كان خرق العادة خارجاً عن قدرة الإنس والجن، فلا يشترط أن يكون خارجا عن قدرتهم في أنفسهم فقط.

ولكن يشترط أن يكون خارجا عن قدرتهم إما في أنفسهم وإما في غيرهم.

فلو أن بقرة تكلمت فهذا خارج عن قدرة الإنس والجن في غيرهم، وإن لم يكن خارجا عن قدرتهم في أنفسهم بمعنى أنهم هم أنفسهم يستطيعون الكلام، ولكنهم لا يستطيعون جعله في بقرة على الحقيقة، فهذا خارق لعادتهم في غيرهم لا عادتهم في أنفسهم

أما الملائكة فنحن لا نعرف قدرتهم، بل لا نعرف وجودهم لا بالحس ولا بالعقل فلا يمكننا الحكم عليهم بأن خارقا معينا خارج عن قدرتهم أم غير خارج.

وإنما عرفنا وجودهم وقدرتهم بالسمع الذي وصفهم بالعصمة فبطل احتمال إضلالهم للخلق[3].

والملائكة ليست من أمة الدعوة والأنبياء لا تدعو الملائكة إلى الإيمان بهم، بل إن الملائكة تتنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم.

والملائكة إنما هي سبب من الأسباب والله تعالى خالق الأسباب والمسببات، وإنما جعل الأسباب لحكمة.

فجبريل مثلا إنما كان مقدوره النفخ في مريم، وهذا لا يوجب الخلق بل هو بمنزلة الإنزال في حق غير المسيح وكذلك النصر فمقدور الملائكة القتال كالإنس

---

(١) الأنعام: ١٣٠. (٢) الإسراء: ٨٨

(٣) انظر ملحق رقم (٣).

والنصر هو من عند الله كما قال تعالى [1] ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم. وما النصر إلا من عند الله﴾ والقرآن إنما يقدرون على النزول به لا على إحداثه ابتداء . ولما قال عفريت من الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ [2] أتته به الملائكة، كذلك ذكره المفسرون عن ابن عباس وغيره، وقد أخبر الله تعالى أنه أيد محمداً ﷺ بالملائكة قال تعالى [3] ﴿فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا﴾. وقال تعالى [4] ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها﴾ وقال تعالى [5] ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ وقال تعالى [6] ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾.

وقد ثبت في الصحيح أن الإنسان يصوره ملك في الرحم بإذن الله .

يقول ـ ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكا ويؤمر بأربع كلمات : فيكتب رزقه وأجله وعمله ثم يكتب شقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح» [7] .

وإذا كان المعجز خارقا لعادة الإنس والجن. وإذا كان النبي إنسيا فقد شرط قوم ألا يكون المعجز مقدورا للنبي وهذا شرط باطل، لأن قدرته مع عدم قدرة غيره هو المعجز إلا إن كانوا يقصدون المقدورية كسبا فكلامهم مقبول .

---

(١) الأنفال : ١٠ . يفهم بعض العلماء من هذه الآية أن نزول الملائكة لم يكن نزولا حسيا وإنما كان على قلوب المؤمنين وهو فهم باطل بدليل قوله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ (الأنفال:٩) لأن الكم المنفصل لا يكون إلا فيما له وجود حسي

(٢) النمل : ٣٩، ٤٠ . (٣) الأحزاب :٩ . (٤) التوبة : ٢٦ . (٥) التوبة :٤٠ .

(٦) الأنفال : ١٢ .

(٧) رواه أبو داود في سننه جـ ٢ ص ٥٣٠ في كتاب السنة والبخاري في صحيحه في الباب (١) من كتاب الأنبياء، ومسلم في صحيحه برقم (٢) من كتاب القدر والترمذي في سننه في الباب (٤) من كتاب القدر وأحمد في المسند جـ ٤ ص ٧ .

ويلاحظ أن لفظ «أربعين» يراد به أحيانا مجرد التعبير عن فترة زمنية غير محددة .

وإذا كانت المعجزة معتادة للأنبياء لم يقدح هذا فيها فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء خارقة للعادة بالنسبة إلى من سواهم .

فخوارق العادات معتاد جميعه للأنبياء بل هو من لوازم نبوتهم.

فلا يتصور أن نبيا يبطل معجزة آخر وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه، ومعجزة كل منهم آية له وللآخر أيضا، كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم .

لأن كل نبي يصدق من سبقه ويبشر بمن بعده، ولأن كرامات الأولياء لم تحدث إلا بفضل متابعتهم للأنبياء، وبالتالي تكون المعجزة هي الخارق لعادة غير الأنبياء والأولياء من الإنس والجن في أنفسهم أو في غيرهم .

والمعجزة لما أراد الله تعالى لها أن تكون خارقة للعادة حتى تقوم بها الحجة، ففي قصة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار مثلا كان من الممكن أن يطفئ الله النار بالريح أو المطر أو أن يسلط على أعدائه من يهلكهم ويستنقذ إبراهيم عليه السلام منهم أو غير ذلك من الأسباب المعتادة، ولكن لما كانت المعجزة خارقة للعادة لم يطفئ الله النار ولم يستنقذ إبراهيم عليه السلام منها، وإنما جعل النار برداً وسلاماً، عليه يقول تعالى(١) ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ .

وفي قصة موسى والسحرة كذلك؛ لم يشأ الحق تبارك وتعالى أن ينتصر لموسى بأن يصرف السحرة عن سحرهم أو أن يحول دون اجتماعهم وإنما أراد أن ينتصر لموسى بأمر معجز فقلب عصاه حية عظيمة تلقف عصي السحرة، وقلب الأجناس أمر معجزة تقوم به الحجة على المخالفين .

٢ ـ أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه :

قد يقال إنه لا معنى لهذا الشرط، لأن كل ما في الوجود لا يقدر عليه إلا الله، فإن الله خالق كل شيء. ولا يستقل غيره بإحداث شيء.

وجواب ذلك .

ان المقصود من انفراده تعالى بالقدرة على المعجزة أنها ليست من ذلك القسم

---

(١) الأنبياء : ٦٩ .

من مقدوراته تعالى التى جرت سنته تعالى أن يفعله بواسطة خلقه من الإنس والجن وغيرهم، دون الملائكة، لأن المعجزة قد تحدث بواستطهم ودون الرسل لأن المعجزة تحدث على أيديهم. ودون الأولياء الذين يشاركون الأنبياء في بعض الخوارق .

وبالطبع فإنه ليس المقصود بذلك أيضا تأكيد ما ذهب إليه بعض النصارى من ادعاء الألوهية لعيسى عليه السلام بحجة ماله من المعجزات .

فهذا يناقض العقل لأن من كانت حاله النقص لا تجوز عليه دعوى الكمال والمسيح عليه السلام كان يأكل ويشرب ويحتاج إلى ما يحتاج إليه الناس. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: **﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾**[1] ومن ثم فلا تصح له دعوى الكمال.

وكلامهم هذا إن احتجوا له بما ورد فى العهد الجديد على لسان عيسى عليه السلام أنه قال[2] «فالذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله: إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنا فيه» .

فهناك نصوص أخرى كثيرة تنص صراحة على أن الله هو الذي يجري المعجزات على يد عيسى عليه السلام .

فقد ورد في أعمال الرسل: «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون» [3] .

وفي قصة إحيائه عليه السلام للعازر نجده يدعو الله قائلا: «ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني» [4] .

بل يعترف المسيح عليه السلام ببشريته وعجزه عن فعل المعجزات وأنه لا

---

(١) المائدة:٧٥.
(٢) يوحنا ١٠/٣٦ ـ ٣٨ وانظر ٢٠/٣٠ ومرقس ١/٢٣ ـ ٢٥ .
(٣) ٢/٢٢
(٤) يوحنا ١١ / ٤٢

يعدو أن يكون بشرا رسولا وأن الله هو فاعل المعجزات فيقول عليه السلام:[1] «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا إلا ما ينظر الآب يعمل»

ويقول:[2] «أنا لا أقدر أن افعل من نفسي شيئاً كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني»

ويقول:[3] «الأعمال التي أعطاني أبي لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني»

أما تعبير «ابن الله» فهو إنما يدل على محبة الله ورعايته ولا يسمح بشيء أكثر من ذلك.

ولم يختص المسيح عليه السلام بهذا اللقب في العهدين القديم والجديد ففي سفر التثنيه: «أنتم أولاد الرب إلهكم لأنك شعب مقدس للرب إلهك»[4].

وفي المزامير « وبنو العلي كلكم»[5].

ويقول يوحنا في إنجيله[6] «أولاد الله أي المؤمنون به» ولذلك يقول المسيح[7] «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». وعندما اتهمه اليهود بالتجديف قائلين له «فإنك وأنت تجعل نفسك إلها. أجابهم يسوع أليس مكتوبا فى ناموسكم أنا قلت إنكم آلهة إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب. فالذى قدسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأنى قلت إنى ابن الله»[8].

ثم إن عيسى عليه السلام نفسه يصرح بأنه لم يختص بعمل المعجزات فهو القائل[9] «من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضا. ويعمل أعظم منها».

كما أن العهد الجديد ملئ بالمعجزات المنسوبة إلى تلاميذ المسيح وخاصة بطرس وبولس كإقامة الموتى[10] وشفاء المرضى[11] وطرد الجن والشياطين[12].

وبنفس هذا المنطق الذي يربط بين المعجزة والألوهية ورد في أعمال الرسل

(١) السابق ٥ / ١٩ .
(٢) السابق ٥ / ٣٠
(٣) السابق ٥ / ٣٦.
(٤) ١٤ / ١ ـ ٢ .
(٥) ٨٢ / ٦ .
(٦) ١ / ١٢
(٧) السابق ٢٠ / ١٧.
(٨) السابق : ١٠ : ٣٣ ـ ٣٦ .
(٩) السابق ١٤ / ١٢ .
(١٠) أعمال الرسل ٩ / ٤٠ ، ٢٠ / ١٠ ـ ١٢ .
(١١) السابق ٣ / ٢ ـ ٧ ، ١٩ / ١١ ـ ١٢ .
(١٢) السابق ١٦ / ١٨ ، ١٩ / ١٢ .

أنه بسبب سلطان المعجزة الممنوح للتلاميذ أقر معاينو معجزاتهم بألوهيتهم (١) .

وفي العهد الجديد هناك كثير من النصوص التي تشير إلى نبوته عليه السلام كما ورد في انجيل لوقا«يسوع الناصري الذي كان إنسانا نبيا مقتدرا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب » (٢) .

وفي إنجيل يوحنا«قالت له المرأة يا سيد أرى أنك نبي» (٣) وفيه أيضا «فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم» (٤) .

بل إن عيسى عليه السلام نفسه يصرح قائلا(٥) «أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» ويقول(٦) «والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى» .

ثم إن العهد الجديد يعترف بالعهد القديم المليئ بالمعجزات المنسوبة إلى الأنبياء كدليل على نبوتهم لا على ألوهيتهم (٧) .

ولو كانت المعجزات تدل على الأولوهية لتعددت الألوهية بتعدد هؤلاء الأنبياء الذين تواترت في حقهم المعجزات وهذا مما لم يقل به أحد حتى هؤلاء الأنبياء أنفسهم .

هذا بالإضافة إلى أنه يتعارض مع التوحيد الذي أتت به الشرائع ودل عليه العقل .

وإمعانا في إثبات أن المعجز مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ينتقد الباقلاني هؤلاء الذين يرون أن المعجز على ضربين، ضرب منه مما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه نحو اختراع الأجسام وإبداع الجوارح والأسماع والأبصار وما جرى مجرى ذلك، والضرب الآخر شيء يدخل مثله وما هو من جنسه تحت قدرة العباد غير أنه يقع منه سبحانه على وجه يتعذر على العباد مثله، فيجري في الحكم كأنه من جهته تعالى .

---

(١) السابق ١٠ / ٢٥ ـ ٢٦ ، ١٤ / ١١ ، ٢٨ : ١ ـ ٦ . (٢) ٢٤ / ١٩ وانظر ١٣ / ٣٢ ـ ٣٤ .
(٣) ٤ / ١٩ وانظر ٧ / ٥٢ . (٤) السابق ٦ / ١٤ وانظر متى ٢١ / ٩ ـ ١١ .
(٥) يوحنا ٨ : ٤٠ . (٦) السابق ١٤ : ٢٤ . (٧) انظر على سبيل المثال ـ سفر الملوك الأول الاصحاح السابع عشر كله ـ وسفر الملوك الثانى ٤ :٣٢ ـ ٣٧ ، ١٣ :٢٠ ـ ٢١ ـ حزقيال ٣٧ :١ـ١٠ فقد أحى النبى حزقيال جيشا كبيرا من الموتى وهم عظام .

وذلك نحو تفريق أجزاء الجبال الصم الصلاب ورفعها إلى ملكوت السماوات وتغييض ماء البحار، ونظم القرآن، وتأليفه على ما هو عليه من البلاغة التي يقدر العباد على اليسير منها (١) وإن تعذر عليهم الكثير مع تجانس قليله وكثيره (٢) .

وكذلك أيضا ما لو تحدى النبي مخالفه ومكذبه بأن يحرك يده أو يقوم من مكانه فتعذر عليه فعل ما تحدي به، لدلت حركات أعضاء النبي وقيامه وتصرفه على صدقه فهذا أيضاً، زعموا أنه دال على أن من المعجزات ما يدخل مثله تحت قدر العباد .

ويجيب الباقلاني على ذلك: بأن ما قالوه من هذا ليس ببعيد، وإن كان الأولى والأشبه من وجهة نظره أن يكون الإعجاز إنما هو في خرق العادة بخلق القدرة على ما لم تجر العادة بخلق القدرة على مثله، أو برفع القدرة على ما اعتيد خلقها عليه .

ويعلل الباقلاني اختياره لهذا المسلك بأنه في هذه الحالة يعود الأمر إلى أن المعجز هو الجنس الذي ينفرد الله سبحانه بالقدرة عليه، دون ما يدخل تحت قدر العباد، أو ما هو من جنسه .

لأن ما يدخل تحت قدر العباد أو مثله ربما عرضت فيه الشبهة وحصلت الشكوك للمكلفين في أنه مما يتم بحيلة من الحيل وسبب من الأسباب (٣) .

ولا أرى فرقا بين الرأيين على الإطلاق ولا أدرى ما الذي جعله الباقلاني «أولى بالصواب» في زعمه وفي الرأي الأول الاحتراز بقولهم: «يقع منه تعالى على وجه يتعذر على العباد مثله» فلا معنى لاشتراط الباقلاني كون الإعجاز في القدرة لا في الفعل .

---

(١) انظر: الماوردى: أعلام النبوة ص ٢٦ . البغدادى : أصول الدين ص ١٧٦ .
القاضى عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٩: ٥٧١ .

(٢) «واختلف المتكلمون فى المعجز منه، فعند بعضهم أن ما خرج عن القدرة منه يكون هو المعجز خاصة لاختصاصه بالمعجز، وعند آخرين منهم أن جميعه يكون معجزا لاتصاله بما لا يتميز منه» (الماوردى: أعلام النبوة ص ٢٦ ـ ٢٧). والخلاف شكلى ولا أهمية له طالما أن الإعجاز موجود فى الحالتين .

(٣) انظر الباقلانى : البيان ص ١٤ ـ ٢٠ .

وما هرب منه وقع فيه لأنه إذا كان يهرب من القول بأن الإعجاز في الأفعال لأن جنس الحمل والطفر وسائر الحركات داخل تحت قدر العباد، فكذلك جنس القدرة موجود للعباد، ولا فرق بين التفاضل في الفعل والتفاضل في القدرة، والخلاف شكلي ولا معنى له .

يقول ابن تيميه: (١) «وليس هذا بفرق طائل فانه لا فرق بين تخصيصهم بالفعل أو بالقدرة عليه .

فإذا كان إقدارهم على الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة كان نفس الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة ».

«وجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور، وإنما خرقت العادة بقدرة خارجة عن العادة كما خرقت بفعل خارج عن القدرة » (٢) .

وعند الباقلاني أن خلق القدرة خلق لمقدورها والقدرة عنده مع الفعل (٣) فلا فرق .

ثم كيف يكون الصعود إلى السماء غير معجز، وإنما المعجز هو القدرة على ذلك .

مع أننا لا نرى القدرة، وإنما نرى الفعل، فالقدرة أمر غير محسوس، وغير مرئي لنا، وإنما المرئي والمحسوس هو الفعل .

وكيف يزيل الإعجاز في القدرة من الشبهات ما لا يزيله الإعجاز في الفعل، فهل هناك فارق بينهما بالنسبة للمشاهد وحواسه .

وإذا كان الباقلاني ممن اشترطوا الدعوى والتحدى في المعجزة فإذا وقع التحدي بنفس الحركة الخارقة للعادة فلا يمكن أن تكون القدرة معجزة، لأن شرط ثبوت كون الخارق معجزة أن يكون مسبوقا بدعواه آية فينبغي أن لا تكون القدرة معجزة إلا أن يتحدى بها النبي .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ١٣٩ : ١٤٠ .

(٢) السابق ص ٢٩ .

(٣) انظر الباقلاني : البيان ص ٦١ ـ ٦٢ .

وبالتالي يتضح لنا مدى الاضطراب في آراء الباقلاني الذي اشترط التحدي واشترط كون الإعجاز في القدرة مع أن التحدي إنما يكون بنفس الحركة الخارقة للعادة لا بالقدرة .

ويستدل الباقلاني وأصحابه على أنه لا يجوز أن تقدر العباد على مثل إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، ونحو ذلك مما يمتنع أن يكون مقدوراً لغير الله، بأن الدلالة قد قامت عندهم على أن الفاعل المكتسب من الخلق لا يصح أن توجد أفعاله إلا في محل قدرته غير متعدية عنه فلو قدر القادر منا على فعل الأجسام لوجب لا محالة وجودها في نفسه وحيزه، وهذا يوجب اجتماع الجسمين والأجسام الكثيرة في حيز واحد وذلك محال، ومعلوم فساده بأول في العقل وكذلك فمحال أن يقدر القادر منا على فعل عرض في غيره لأن ذلك يوجب أن يكون ذلك العرض في غيره فيه، وأن يوجد العرض الواحد في محلين، ومحال وجود الذات الواحدة التي ليست بمنقسمة في محلين، لأن ذلك يوجب أن تكون في نفسها ذاتين منقسمتين على محلين، وفي حيزين أو أن تكون الذات الواحدة التي لا تنقسم في حيزين .

واستدلوا على ذلك أيضا بأن ما يصح دخوله تحت قدر العباد فإنه واجب وقوعه متى قدروا عليه لقيام الدلالة عندهم على أن القدرة مع الفعل، ولا يحتاج الفعل مع حصول القدرة عليه إلى آلة سواها ولا إلى حيلة يتعذر وقوع الفعل المقدور مع عدمها .

وبناء على كلامهم هذا فإنا لو كنا قادرين على فعل هذه الآيات والأجناس لوجب وقوعها منا لا محالة لما ثبت من وجود القدرة مع الفعل .

وفي عدم ذلك من جهتنا وتعذره علينا دلالة على أنا غير قادرين على شيء من ذلك.

واستدلوا كذلك على أنه لا يصح أن نقدر على شيء من المعجزات أبداً بأن ما يصح أن يقدر القادر عليه فلابد متى عدمت قدرته عليه من وجود ضد لها يعاقبها من عجز عن مقدورها أو قدرة على تركه .

ولو كان فينا عجز عن فعل الأجسام والأسماع والأبصار والألوان لوجب لا محالة أن نحس ذلك العجز في أنفسنا ونجده وجودا لا شك فيه، كما يجد العاجز نفسه عاجزا عن الحركة والبطش والتصرف عند خلق العجز فيه عن ذلك ويجد نفسه الطالبة لفعله ممنوعة منه، وكذلك لوكان فينا قدرة على فعل الترك لوجب أن نجد أنفسنا خالية من فعل هذه الأمور، ومن القدرة عليها على سبيل الترك لذلك والاختيار للانصراف عنه وإيثار ضده عليه، كما نجد اختيارنا للسكون على الحركة، والصمت على النطق، وأمثال ذلك مما نختار تركة على فعله ونؤثره على ضده، ونحس القدرة عليه، والتمكن منه في أنفسنا ولما كنا إذا رجعنا إلى أنفسنا لم نجد فيها عجزاً عن هذه الأمور، ومنعا منها، ولا قدرة عليها وتمكينا من تروكها، علم بهذه الجملة استحالة وجود قدرة الخلق على شيء من هذه الأجناس[1].

وهذا كلام أراه في غاية التكلف والتعقيد، فكيف يكون مثل هذا الكلام المتنازع فيه هو الفرق بين المعجزة وغيرها ؟

والذي إن فرض صحيحا لم يفهم إلا بكلفة ولا يفهمه إلا قليل من الناس، والذين آمنوا بالرسل لما رأوا الآيات آمنوا ولم يتكلموا بمثل هذا الفرق .

ثم إن إشتراطهم أن تكون المعجزة خارقة للعادة يغني عن اشتراطهم أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه، والعكس صحيح أيضاً .

٣ - ألا تكون من الصناعات المكتسبة :

وهو شرط باطل، لأن للسحر أنواعاً عديدة ذكر الرازي عشرة أنواع منها في كتابه النبوات[2] ومن هذه الأنواع ما لا يحتاج إلى تعلم البتة .

وهذا ما يقرره الطوسي كذلك في شرحه على الإشارات والتنبيهات حين يقول:[3] إن «هذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلي منسوبة إلى الهيئة النفسانية المستفادة من ذلك المزاج، التي هي بعينها التشخص الذي تصير النفس معه

---

(١) انظر السابق ص ٦١ ـ ٦٤ .

(٢) انظر الرازى : النبوات ص ٢٠٠ ـ٢٠٣ وانظر أنواع السحر فى الفصل الأول من الباب الثانى من دراستنا هذه .

(٣) الطوسى : شرح الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٧ .

نفسا شخصية، وربما تحصل بمزاج طارئ، وربما تحصل بالكسب كما للأولياء» .

وابن خلدون في المقدمة يذكر لنا أن الفرق عند أصحاب الطلسمات والسحرة بين السحر والطلسمات: أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين، وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد، وخواص الموجودات، وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر، لأنهم يقولون إن السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبة في غالب الأمر بالنجامة .

فالساحر عندهم غير مكتسب لسحره، بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير (١) .

ويرفض ابن خلدون كذلك القول بأن معرفة الغيب تدرك بالصناعة فهو يقول(٢): «والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع من عالم الحس إلى عالم الروح» .

ويستدل على ذلك بما هو واقع مشاهد لا يسع أحداً إنكاره من أنا نجد في النوع الإنساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم، ولامن غيرها، وإنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها (٣) .

ويؤكد على كلامه بأن المنجمين يسمون هذا الصنف بالزهريين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على إدراك الغيب .

ومن ثم فهو يرى أن الخط وغيره من هذه العلوم إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية، وقصد بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها

---

(١) انظر ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٢ .

(٢) السابق ص ١١٣ . (٣) انظر السابق ص ٥ .

إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما فهو أمر مقبول. وإن لم يكن كذلك وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيد ذلك، فيرى ابن خلدون أن ذلك هذر من القول والعمل [1].

ويؤكد ما سبق من عدم اعتبار كون الخارق ناتجا عن التعلم أو غير ناتج عنه فارقا ذو دلالة: ما يذكره ابن خلدون[2] وابن سينا[3] والغزالي[4] وغيرهم من أن هذه الخاصية وهي النطق بالغيب موجودة أيضا في حالة الجنون، وهذا أمر واقع مشاهد لا يسع أحداً إنكاره، وسيأتي تفصيل الكلام عن ذلك في مبحث التأويل.

ويؤكد ذلك أيضا أن ابن صياد لم يكن قد بلغ الحلم وهو ما يزال طفلا يلعب مع الصبيان حتى لفت الأنظار إليه كمتنبئ بالغيب لدرجة أن ذهب إليه الرسول ﷺ خصيصاً في رهط من أصحابه، ليكشف لهم عن حاله ولدرجة أن همّ عمر رضي الله عنه بقتله [5] ولم يرو أنه تعلم من معلم ولو وجد هذا المعلم لاشتهر أمره كما اشتهر أمر ابن صياد حتى أفرد له مسلم في صحيحه بابا خاصا به، ولم يشر فيه إلى مثل هذا المعلم البتة .

وإذا كان للحسد تأثير مادي في عالم الحس، وإذا كان الحسد لا يحتاج إلى تعلم فكذا السحر، فما الحسد إلا نوع من أنواع السحر وهو السحر بالهمة .

ويؤكد على ذلك أيضا ما يذكره د. رءوف عبيد في كتابه الإنسان روح لا

---

(١) انظر السابق ص ١١٣ .

(٢) انظر السابق ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٣) انظر ابن سينا :الإشارات والتنبيهات ص ٨٨٠ ـ ٨٨١ .

(٤) انظر الغزالى : معارج القدس ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .

(٥) روى البخارى فى صحيحه أن عمر بن الخطاب انطلق مع النبى ﷺ فى رهط قبل ابن صياد،حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أطم بنى مغاله(الأطم:الحصن أو البيت المرتفع) وقد قارب ابن صياد الحلم.فلم يشعر حتى ضرب النبى ﷺ بيده ثم قال لابن صياد تشهد أنى رسول الله ،فنظر اليه ابن صياد فقال أشهد أنك رسول الأميين.فقال ابن صياد للنبى ﷺ أتشهد أنى رسول الله فرفضه،وقال آمنت بالله وبرسله،فقال له ماذا ترى قال ابن صياد يأتينى صادق وكاذب فقال النبى ﷺ خلط عليك الأمر،ثم قال له النبى ﷺإنى قد خبئت لك خبيئا فقال ابن صياد هو الدخ فقال اخسأ فلن تعدو قدرك،فقال عمر رضى الله عنه دعنى يا رسول الله اضرب عنقه،فقال النبى ﷺ إن يكنه (أى المسيخ الدجال) فلن تسلط عليه وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله ». رواه البخارى فى صحيحه جـ ٢ ص١١٧ .

جسد من أمثله كثيرة لهذا النوع من الإدراك المتميز والذي لا يتعلق بمبدأ التعليم [1] إلا أن المقام لا يتسع لسردها هنا ونكتفي بما سبق أن ذكرناه من أمثله لذلك .

ويؤكد محمد بن إبراهيم الوزير على ما سبق من عدم اعتبار كون المعجزة من الصناعات غير المكتسبة بالتعلم شرطا ذو قيمة بأن العلم بالتفرقة بين المعجزة والسحر لا يتم إلا لمن علم ماهية السحر، وذلك لأن هذا الفرق الذي يفرق به بينهما ليس إلا وصفا ثابتا لأحدهما وغير ثابت للآخر .

فإن كان ثابتا للسحر منتفيا عن المعجز، مثل قولهم: إن السحر يدرك بالتعلم والمعجز لا يدرك به، فلا كلام أن من لم يعرف السحر لا يمكنه العلم بأنه يدرك بالتعلم بل يجوز أنه لو تعلمه ما علمه، وأنه إنما يحصل بفعل الله مباشرة، ثم إذا سلمنا جدلا بأن السحر إنما يدرك بالتعلم فمن رأى المعجز فمن أين له انه ليس من السحر الذي يمكن تعلمه، لا يقال يطلب تعلمه فإن لم يحسن علم أنه معجز، لأنا نقول هو لا يحسن تعلمه إلا من ناصح له فى التعليم محب لإفادته، وقل ما يوجد من السحرة من يعلم السحر أحداً إلا أن يكون ولداً له أو من منزلته عنده في المحبة منزلة الولد، وإن كان الوصف الفارق بين المعجزة والسحر ثابتا للمعجز منفيا عن السحر فذلك أجلى في أن العاقل لا يمكنه أن ينفي وصفا عن شيء وهو لا يعرف ذلك الشيء [2].

وأما قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ [3] فهذه الآية لا تنفي جميع الاحتمالات، فهناك احتمال أنه أمي ولكنه تعلم من معلم أو أن هذا الخارق انما كان بدون تعلم والاحتمال الأول فينفيه قوله تعالى ﴿فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون﴾ [4] لأن هذا المعلم إما أن يعلمه في زمن طويل، فلا بد أن يفتضح أمر النبي، وإما أن يعلمه في زمن قصير بحيث لا يشعر به أحد، ولا يعقل أن يصل متعلم في علمه الذي لم يتعلمه سوى في زمن قصير إلى درجة التحدي لمن أرسل اليهم أو ادعى الرسالة

(١) انظر د. رءوف عبيد :الإنسان روح لاجسد جـ ١ ص ٢١٧ ـ ٢٢٢ ـ ٢٤٠ .
(٢) انظر ابن إبراهيم الوزير :البرهان القاطع ص ٢٢ .
(٣) العنكبوت : (٤٨) .
(٤) يونس : (١٦) .

إليهم، خاصة إذا كانوا الإنس والجن وإلى قيام الساعة.

أما احتمال أن ذلك الخارق إنما كان بدون تعلم فيكون الجواب هنا بإبراز أن الفارق إنما يعود إلى نفس طبيعة الخارق، وإلى قرائن أخرى كثيرة ترجع إلى حال الداعي وقيمة الدعوة.

وقرائن الصدق العائدة إلى حال الداعي هي المشار إليها بالآية السابقة (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) ويشير إلى قرائن الصدق العائدة إلي قيمة الدعوة قوله تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً﴾ (١).

ثم إن الله تعالى إنما جعل المعجز من الجنس الذي يبرع فيه أهل زمان ومكان ذلك المعجز حتى تقوم الحجة بعجزهم.

ولذلك كانت معجزة موسى عليه السلام مما يشبه السحر، لأن قومه نبغوا في السحر، وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وشفاء الأمراض التي لا يقدر عليها طبيب لأن قومه نبغوا في الطب وكانت معجزة الرسول الخاتم ﷺ متعددة الجوانب لتناسب الناس جميعاً في كل مكان وزمان وإلى قيام الساعه.

وأود هنا إضافة: أن إيمان المتخصصين في جنس المعجزة قائم على الفهم، وأما إيمان العوام فقائم على الانبهار واتخاذ القدوة، وأما إيمان تلك الطبقة الوسطى بين العوام والمتخصصين فقائم أساسا على القرائن من حال الداعية وقيمة الدعوة والقدوة وإن كانت قرائن صدق الداعي والدعوة من مقومات إيمان العوام والمتخصصين أيضاً.

٤ - أن تكون لغير حذق في الصناعة:

فإذا كانت المعجزة هي الخارق لعادة الإنس والجن كما سبق إيضاحه، فمن الطبعي أن لا يكون الحذق في الصناعة معجزا طالما كان في حدود الأمر العادي.

فليس يخرج الحذق في الصنعة إلى أن يأتي بغير جنسها، وما ليس منها في شيء وما لا يعرفه أهلها.

---

(١) النساء: (٨٢).

ثم إن الحذق فى الصناعة لا يعتبر معجزا طالما أنه لم يختص بالأنبياء فالطب والنحو والفقه مثلا وإن أتى العالم في أحد هذه العلوم بما لا يقدر غيره على نظيره فليس ذلك بمعجز له لأن ذلك لم يختص بالأنبياء فإن ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع أو تجربة أو قياس وهى طرق معروفة لغير الأنبياء والنبي قد علمه الله من الغيب الذى عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلا نبي مثله، فإقليدس مثلا لم يخترع الحقائق التي أوردها في كتابه وليس في طاقته هو نفسه أن يبتدع كتابا آخر أو يزيد قضية واحدة على تلك القضايا فالعجز هنا يشمله كما يشمل الآخرين، والدعوى لا تظهر فضلا له غير فضل الاهتداء والإشارة إلى الحقائق الموجودة قبله والتي لا يد له هو في إيجادها بأي معنى من معانى الإيجاد [1].

ومن ثم فإنه يعرف أن الآية مختصة بالأنبياء حين تعرف النبوة أولاً وتعرف خصائصها ولهذا يبين تعالى نبوة محمد ﷺ باعتبارها بنبوة من قبله كقوله تعالى **﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** [2] وقوله **﴿قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾** [3].

«ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن، قال ابن نوفل: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة فكان عندهم علم بما جاء به موسى اعتبروا به » [4].

وكذلك الجن لما سمعت القرآن **﴿ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾** [5].

فبين تعالى أن هذا الجنس من الناس وهم الأنبياء معتاد معروف للبشر وإن كان قليلا فيهم فقد تقدم له نظراء وأمثال.

وكذلك ورد على لسان المسيح عليه السلام فى الإنجيل: «لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونى» [6]

أما ما يقوله ابن تيمية من أن«من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولا كقوم

(١) انظر:ابن تيمية:النبوات ص ١٤ . وانظر كذلك العقاد:ساعات بين الكتب ص ٢٩ .
(٢) الأنبياء : (٧) . (٣) الأحقاف : (٩) . (٤) ابن تيمية: النبوات ص ٢٣ : ٢٤ .
(٥) الأحقاف : ٢٩ ،٣٠ . (٦) يوحنا ٥ / ٤٦ .

نوح، فهذا بمنزله ما يبتديه الله من الأمور، وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون(به) أن الله صدقه في إرساله، فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدل على الشخص إذ النوع قد عرف قبل هذا» [1].

فابن تيمية لم يوضح هذا الفرق بين المعجز الذي يدل على الشخص والذي يدل على الشخص والنوع، أي بين معجزة نوح، ومعجزة غيره من الأنبياء عليهم السلام.

وبصرف النظر عن الخلاف فى من هو أول الأنبياء. فكلام ابن تيمية هنا قد يكون صحيحاً وتكون هناك آيات خاصة بأول الأنبياء لتبين الشخص والنوع. وإن خفيت هذه الآيات على كثير منا، ولا إشكال في ذلك فدلالة المعجزة نسبية .

إلا أنا لسنا فى حاجة ملحة لهذه المعرفة لأنا كما يقول الرازى [2] «نعرف بظهور المعجزة عليه (أى النبى) كونه مشرفا عند الله على سبيل الإجمال من غير أن نعرف كيفية ذلك الشرف» وبالطبع من يشرفه الله تعالى لا يكذب عليه، وكما يقول ابن رشد[3] «إن من اقدره الله تعالى على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه» لأن «من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب» [4] .

أما إن قلنا إن آدم عليه السلام هو أول الأنبياء فقد كان له عليه السلام من الآيات الظاهرة ما يدل على الشخص والنوع وهو أنه عليه السلام أصل البشرية ولم يكن معه من يحتال عليه ويكذب في ادعاء النبوة إلا من هو فرعه وتابعه، ولم تنقطع النبوة من بني آدم لقوله تعالى ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ (٥) فعلم من هنا معنى النبوة ومعنى الرسالة وخصائصهما.

٥ - أن يكون الرسول حاضراً:

يقول الرازي:(٦) «إن عند ظهور المعجزة لبعض الأنبياء لابد أن يكون الرسول حاضراً»

---

(١) ابن تيمية :النبوات ص ١٩ .
(٢) الرازي: النبوات ص ١٨٤ .
(٣) ابن رشد :مناهج الأدلة ص ١٢٠ .
(٤) السابق ص ١١٢ .
(٥) فاطر : ٢٤ .
(٦) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ٢٠٢ .

وأنا لا أفهم ، مراد الرازي من قوله (لبعض الأنبياء) ولا أوافقه على ما ذهب إليه من اشتراط كون الرسول حاضراً .

فلا يشترط الحضور ولكن يشترط وجود علاقة رابطة تربط بين الرسول وبين المعجز، وهي المعبر عنها بقولهم: (تحدث على يديه) .

وليس المقصود باليد الجارحة، ولكن المقصود بها الرابطة التي تبين أن ذلك المعجز لذلك النبي. فأخبار النبي بالغيب منها مالا يتحقق إلا بعد وفاته إلا أنها معجزة له لوجود رابطة بينه وبينها هي الإخبار بها.

٦ - أن تكون المعجزة مطابقة للدعوى:

فلا بد أن يكون المعجز مطابقا للدعوى، فإنه لو لم يكن كذلك لم يتعلق المعجز بالدعوى ولم يدل على الصدق.

فإذا ادعى أحد معجزا وحدث ذلك المعجز كما قال كان ذلك دليلا على صدقه وإذا لم يحدث دل ذلك على كذبه، وإذا حدث عكسه كما يحكي عن مسيلمه من أنه لما ادعى النبوة ادعى أن معجزته انه إذا بزق في هذه البئر وأشار إلى بئر معينة فار ماؤها والله تعالى أمرحتى غاض ماء ذلك البئر، صار ذلك تكذيبا له

وإن كان القاضي عبد الجبار يرى أن تغييض الله تعالى لماء البئر التي ادعى مسيلمه أنه إذا بزق فيها فار ماؤها أنه مما لا يجوز على الله تعالى. وأن ذلك عبث لا فائدة فيه لأن الله تعالى كان يمكنه ألا يظهر المعجز عقب الدعوى فيظهر كذب المدعي(١) .

وذلك مما لا يسلم له به لأن أقسام حكم الله تعالى لا يحيط بها أحد، وذلك ليس بمستحيل عقلا ولا يتعارض مع تنزيه الباري، فلا مانع له من شرع أو من عقل إن ثبت تواترا

٧ - ألا تظهر المعجزة مكذبة للنبي:

فمن وجوه تعلق المعجزة بالتصديق ألا تظهر مكذبة للنبي، فإذا ادعى مدع النبوة، وقال آية صدقي أن ينطق الله يدي، فإذا أنطقها الله تعالى بتكذيبه وقالت: اعلموا أن هذا مفتر كذاب، فلا يكون ذلك آية له ولو قال: آيتي أن يحي الله

(١) انظر القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٧٠ .

هذا الميت فأحياه الله تعالى، فقام وله لسان زلق، فقال: صاحبكم هذا متخرص، وقد بعثني الله تعالى لأفضحه ثم خر صعقا فهذه آية مكذبة لا تدل على الصدق، ولو كذبه وعاش طويلا لما كان لتكذيبه دلالة، ولكان ذلك آية للنبي لأنه أحياه.

ويرى الجويني: «أن التكذيب إن كان خارقا للعادة فهو الذي يقدح في المعجزة وذلك بمثابة نطق اليد بالتكذيب فأما الميت الذي أحيى وكذب فتكذيبه ليس بخارق للعادة، وللنبي أن يقول: إنما الآية إحياؤه وتكذيبه إياى كتكذيب سائر الكفرة (١) .

وحجة الجويني في ذلك أن التحدي إنما وقع بالإحياء وقد حصل، وهذا حي مختار اختار الكفر والفرق بين تكذيب الميت وتكذيب اليد والجماد ونحوهما أن نفس النطق في اليد والجماد، وهو نفس الآية هو المكذب بينما النطق في إحياء الميت هو المكذب، وليس هو نفس الآية، وإنما الآية في إحيائه فافترقا من جهة أن المكذب هو المدعى آية الصدق في إحدى الصورتين دون الأخرى .

وابن دهاق في شرح الإرشاد يرى أن تكذيب اليد ونحوها لا يقدح في المعجزة، لأن التحدي إنما وقع فيه أيضا بمجرد النطق، وقد وقع، والتصديق لم يقع التحدي به حتى يضر تخلفه (٢) .

ولكني أتساءل: كيف يؤيد الله إنسانا بخارق ثم يخذله بتكذيبه ؟

وأرى أن تكذيب الجماد والحيوان، وكذلك الميت المتحدي بإحيائه إذا خرصعقا بمجرد إحيائه وتكذيبه النبي أرى أن كل ذلك مكذب للنبي، لأنه يثير من الشبهات ما لا خلاص منه.

أما الميت المتحدى بإحيائه إذا قام وكذب وعاش طويلا فلا يطعن ذلك في المعجزة لأنه حيّ مختار كفر ومثله مثل سائر الكفرة، أما إذا خرصعقا بمجرد إحيائه وتكذيبه فهي آية مكذبة فهو كأنه لم يحيى إلا للتكذيب .

وإذا لم يكن ذلك كذلك ففي ذلك من الشبهات ما لا خلاص منه ، والشبهات لا تكون بمثل هذا اللبس وخاصة في المعجزات التي قال تعالى عنها ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ (٣) .

---

(١) انظر الجويني : الإرشاد ص ٢٦٥ : ٢٦٦ .
(٢) انظر السنوسي : شرح الكبرى ص ٤٥٤ .
انظر الإيجي : الموقف ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠
(٣) النمل : ٩٣ .

٨ - ألا يتعارض الإعجاز الحسى مع الإعجاز المعنوى :

فلابد في المعجزة ألا يتعارض الإعجاز الحسى مع الإعجاز المعنوى لأن الإعجاز المعنوي أولى بالدلالة، لأنه إنما يدل على الصفة التي من أجلها كان النبي نبياً أما الإعجاز الحسي فهو معجز براني لا يستقل في الدلالة ولابد له من إعجاز معنوي يصاحبه ويؤكده (١).

٩ - ألا تعارض المعجزة :

فالمعجزة لا يمكن معارضتها ويرى السنوسي: (٢) «أن المعجزة إن ادعيت معينة فشرط المعارض مماثلته لها، وإن كانت غير معينة، فقال سيف الدين الآمدي أكبر أصحابنا اشترط المماثلة والذي اختاره. . . . أن المماثلة غير مشروطة، وهو الحق »

والقضية في تصوري هنا هي: هل المعارضة تكون بخارق حقيقي للعادة أم لا تكون بخارق حقيقي وإنما تكون بحيل وشبهات .

فإذا كانت المعارضة بخارق حقيقي فلا معنى لاشتراط المماثلة، وقد تبين أن في قدرة البشر الإتيان بالخوارق الحقيقية، وهنا تبطل المعجزة .

وإذا كانت المعارضة لا تتم بالخوارق الحقيقية وإنما تكون بالحيل والشبهات، فقد تكون هذه الحيل مماثلة للمعجزة مماثلة ظاهرية مثل عصا موسى وعصي السحرة فقد ظهرت كل منهم في صورة حية. وقد لا تكون مماثلة، فلا معنى لاشتراط المماثلة لأنها وإن وجدت المماثلة فهي ظاهرية وهي حيلة وشبهة كشأن سحرة فرعون، فالعبرة إذن هى بكون المعارضة بخارق حقيقي وليست بحيلة أو شبهة .

وإذا كانت معجزات الأنبياء عليهم السلام لم تعارض فالسبب الحقيقي في ذلك أنها خارقة للعادة وفوق قدرة عامة الخلق أجمعين .

على أن هناك من يزعم أن الإعجاز في القرآن الكريم إنما هو بالصرفة وأن العرب كانت قادرة قبل البعثة على الإتيان بمثله وهي الآن بعد انتهاء تبليغ الرسالة وقيام الحجة على صحتها تستطيع كذلك الإتيان بمثله .

وفاتهم أن ذلك لو كان كما زعموا لكان آية عظيمة وحجة باهرة لأن إعدام

(١) انظر مبحث عدم الاستقلال الدلالى للمعجزة الحسية في الفصل الأول من الباب الثالث .
(٢) السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٤٩ .

القدرة على ما هو معتاد ثم خلقها عليه ثانيا ليس أمرا معتاداً ولكنه خارق للعادة، ثم إنه بفرض أن المانع عن المعارضة ليس إعدام القدرة ولكن صرف هممهم ودواعيهم فإن ذلك لو كان لكان آية عظيمة أيضا لأنه خارق للعادة وعلى غير المألوف (١)

إلا أن تحدي الرسول بالقرآن كان بالنسبة لكل العصور لا لعصر معين بدليل مقارنة القرآن بكلام العرب قبل الإسلام وكلامهم بعده من جميع الوجوه، وبالتالي فلا يمكنُ القول بالمنع من القدرة، وكذلك لا يمكن القول بالمنع من الهمة بدليل معارضات مسيلمة وغيره.

وأما ما رواه ابن حزم عن بعض العلماء ولم يسمهم من قولهم إن إعجاز القرآن قد ارتفع بتمام قيام الحجة به في حياة الرسول ﷺ وبالتالي فتمكن معارضته، واستدلوا على ذلك بأنه«لو عورض الآن لم تبطل بذلك الحجة التي قد صحت كما أن عصا موسى إذا قامت حجته بانقلابها حية لم يضره ولا أسقط حجته عودها عصا كما كانت، وكذلك خروج يده بيضاء من جيبه ثم عودها كما كانت، وكذلك سائر الآيات» (٢) .

فهذا القول مخالف لما عليه الجمهور من أن الإعجار باق إلى يوم القيامة.

وهو قول باطل لأن عود العصا إلى طبيعتها لا يناقض الخارق وهو قلبها حية لأن الذي أعادها هو الذي قلبها وهو الله تعالى على يد نبيه موسى عليه السلام .

ثم إن في إعادتها إلى صورتها الأولى إعجار كما كان في قلبها إعجار وإنما تكون المعارضة هنا لو استطاع معارض أن يأتي بمثل المعجزة وهي قلب العصا حية وإعادتها، وكذلك القرآن إنما يناقضه لو استطاع أن يأتي معارض بمثله في أي وقت سواء قبل الدعوى أو بعدها .

وأما ما رواه ابن حزم عن الأشعري من أنه يرى: أن المعجز الذي يتحدى الناس بالجيء بمثله هو الأول الذي لم يزل مع الله تعالى ولم يفارقه قط ولا أنزل الينا ولا سمعناه فهو كلام باطل .

---

(١) انظر الباقلاني : التمهيد ص ١٢٩ . وانظر كذلك الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٣٠ .

(٢) ابن حزم : الفصل جـ ٣ ص ١٦ .

إذ من المحال أن يكلف الله تعالى أحداً أن يجئ بمثل ما لم يعرفه قط ولا سمعه، ثم إنه يلزم على ذلك أن المسموع المتلو عندنا ليس معجزاً بل مقدورا عليه أو على مثله، وهذا كفر لاخلاف فيه، وايضاً فإنه خلاف القرآن لأن الله تعالى ألزمهم بسورة أو بعشر سور منه.

وهذا الذي رواه ابن حزم عن الأشعري لم نجد له أي أثر في كتب الأشعري التي تحت أيدينا ولا نظن بالأشعري أن يخرج منه مثل هذا الكلام، ويؤكد ذلك قول ابن حزم في نهاية النص السابق :إن للأشعري قولا كقول المسلمين : أن المتلو هو المعجز (١) .

وأنكر قوم العجز عن المعارضة وزعموا أن في كون المعجزة من عجز الإنسان وقدرة الله عدم احترام للإنسان وتعظيم لله على حساب الإنسان وزعموا أن قدرة الله تعالى لا تثبت بإثبات عجز الإنسان لأنا لا نحتاج لإثبات قدرة الفيل إثبات عجز النملة أو لإثبات قدرة الأسد إثبات عجز الفأر .

وزعموا كذلك أن إثبات قدرة الله ليس تعظيما له ما دامت على حساب قدرة الإنسان وأن قدرة الله أعظم من أن تثبت بعجز الإنسان، فإذا كان هدف المعجزة إثبات قدرة مطلقة فوق قدرة الإنسان المحدود فهذا ليس غاية الوحي بل إن غاية الوحي كما يزعمون عكس ذلك تماما وهي إثبات أن لا قدرة فوق الإنسان وأن الإنسان قادر قدرة مطلقة، وإن غاية الوحي رفض قوى الطبيعة والسيطرة، وقوى الطغاة العاتية وقوى البخت والمصادفة، وكل قوى غير عاقلة .

ويزعمون كذلك أن إثبات عجز الإنسان حطة في شأنه وتجويز العبث والظلم على الله لأنه كيف يخلق إنسانا عاجزا ثم يطالبه بالتكاليف ؟

ثم إنه بزعمهم إذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله فالأولى أن يخلق الله القادر الإنسان قادراً ولو كان الإنسان عاجزاً لكان الله عاجزا مثله (٢) .

والجواب على ذلك:

إن في قولهم إن فى إثبات عجز الإنسان وقدرة الله«تعظيم لله على حساب

---

(١)انظر السابق : جـ ٣ص ٢٥ . (٢) انظر حسن حنفى : من العقيدة إلى الثورة جـ ٤ ص٦٥ : ٦٦.

الإنسان»مغالطة كبرى لأن الإنسان لا يضره ولا يحط من شأنه إثبات عجزه أمام خالقه،بل هذا هو منطق العقل لأن الإله لا يخلق إلها بل يخلق عبدا والنقص والعجز صفة العبيد المخلوقين بل إن أسمى ما يوصف به الإنسان أن يكون عبداً لله وأسمى ما يتقرب به الإنسان إلى الله أن يستشعر معنى العبودية والاحتياج لخالقه تعالى .

وكذلك في قولهم إن «قدرة الله أعظم من أن تثبت بعجز الإنسان» مغالطة أخرى .

لأنا نقول: نعم هي أعظم من ذلك حقا ولكن لابد للنبي من دليل على أنه مرسل من عند الله،وبالطبع لا يكون ذلك الدليل إلا شيئا خارجا عن قدرة الإنس والجن وعامة الخلائق

ثم انه هل يعني قولهم إن غاية الوحي«إثبات أن لا قدرة فوق الإنسان وأن الإنسان قادر قدرة مطلقة»هل يعني ذلك إنكار وجود الله ؟

إذا كان الأمر كذلك فليس هنا مجال الرد على ذلك .

ثم انه هل القائلون بذلك يرون أن لهم فعلا مثل هذه القدرة المطلقة على الفعل؟

لا أعتقد ذلك وهاهم أمامنا بشر يمرضون ولا يخلدون ويصيبهم ما يصيبنا من العجز.

وجواب قولهم«كيف يخلق الله إنسانا عاجزاً ثم يطالبه بالتكاليف؟»: أن العجز هنا لا يعني عدم القدرة على التكاليف .

لأن العجز نسبي وكون الإنسان عاجزا عن الإتيان بالخوارق الحقيقية لا يعني عجزه عن أداء الأوامر الشرعية واجتناب النواهي .

وهل يريد هؤلاء من قولهم«لو كان الإنسان عاجزاً لكان الله عاجزا مثله»أن يتساوى الله والإنسان في القدرة ؟

فما الفارق بين المخلوق والخالق إذاً ؟وهل في منطق العقل أن يخلق الله القادر إنساناً قادراً مثله؟أيريد هؤلاء أن يخلق الإله آلهة؟وهل الإله يكون

مخلوقاً؟وألا يطعن ذلك في ألوهيته؟

وإذا كان هؤلاء يرون أن الناس غير عاجزين عن معارضة النبي فما هي طبيعة التأييد الإلهي التي يرضاها هؤلاء إن كانت المعارضة ممكنة .

وزعم المنكرون للمعجزات كذلك أنه ربما كان المانع عن المعارضة هو عدم العلم بطريقة المعارضة والحجاج، وزعمهم باطل لأن كل نبي كانت معجزته من جنس ما نبغ فيه قومه.

وكذلك لا يمكن أن يكون المانع كما يزعمون هو عدم العلم بأن أمر النبي يبطل بالمعارضة، لأنه لاشبهة على أحد في أن من قال له قائل: إنك لن تقوم ولن تقدر على القيام كاذب إذا قام وقدر على القيام .

وكذلك لا يمكن أن يكون الصارف للقوم عن المعارضة اعتقادهم أن السيف أنجح في أمره وأحسم لمادة شبهته لا للعجز عن ذلك لأنه لو كان المعجز في قدرتهم لأتوا به مع نصب الحرب ولو قدروا على المعارضة لكانت عليهم أسهل، ولا يليق بالعاقل البالغ الكامل العقل العدول عن الأمر السهل إلى الأمر الصعب إلا إذا لم يرتفع غرضه بالأمر السهل .

فلما أبوا إلا المحاربة التي كان من الجائز أن لا يرتفع غرضهم بها بأن تكون الدائرة عليهم، وتركوا المعارضة تبينا عجزهم وقصورهم عن المعارضة.

وكذلك لا يمكن أن يكون المانع لهم من المعارضة هو خوفهم من دخول الشبهة على أوليائه وقوله لهم: إنه ليس بعروض لما أتيت به .

لأنا قلنا من قبل إن معجزة كل نبي من جنس ما نبغ فيه قومه ثم إنه بإزاء الخوف من ذلك الرجاء لوضوح بطلان ما أتى به لهم ووقوفهم عليه، فكيف لم يبعثهم هذا على معارضته؟

وليس يجب في المعارضة أن تكون مثل ما تحصل المعارضة معارضة له، ولا أن تكون فوقه بل إذا قاربته بحيث يلتبس الحال فيهما كفى .

ولا يقال بالطبع هنا إن التحدي لم يبلغ من هو قادر على المعارضة أو إنه تركها طمعا لينال من دولته حظا، أو لعلهم استهانوا به أولا وخافوه آخرا لشدة

شوكته أو شغلهم ما يحتاجون إليه في تقوية معيشتهم عنه، أو لعل المعجز عورض ولم تظهر المعارضة لمانع، كخوفهم، أو ظهرت ثم أخفاها أصحابه عند استيلائهم وطمسوا آثارها .

لأن احتمال المانع من المعارضة أو النقل لها للبعض في بعض الأوقات والأماكن لا يوجب احتماله في الجميع لأنه كان لابد من تحدثهم بينهم إذا خلوا وجالسوا من يأمنون سيفه على وجه يجب أن يضطر إليه كما يجب في مستقر العادة تحدث الناس بعيوب سلاطينهم وجبابرتهم ومذموم الخصال التي فيهم ، وإن لم ينقل ذلك نقلا ظاهراً ويقع تفصيله والنص عليه والبيان له من كل رجل بعينه.

وإذا كنا لا نعلم وجود المعارضة للمعجزة كعلمنا لظهورها من جهة النبي وجب سقوط ما قالوا.

وأيضا فلو كان الخوف مانعا من نقلهم المعارضة لمنع ذلك أيضا من دعوى المعارضة.

ولو أنهم عارضوا المعجز لكان يجب أن تنقل إلينا معارضتهم فإنه لا يجوز في حادثتين عظيمتين تحدثان معا، وكان الداعى إلى نقل أحدهما كالداعى إلى نقل الأخرى أن تخص إحداهما بالنقل، بل الواجب أن ينقلا جميعاً أو لا ينقلا فأما أن تنقل أحدهما دون الأخرى فلا .

بل لو قيل إن الداعي إلى نقل المعارضة أقوى لكان أولى إذ المعارضة مما ينقلها المخالف والموافق.

المخالف ينقلها ليرى الناس أن فيها إبطال الحجة، والموافق ينقلها ليتكلم عليها ويبين أن ذلك ليس من المعارضة في شيء.

ويزيد ما ذكرناه وضوحا أنهم قد نقلوا من المعارضات كثير كمعارضة مسيلمة لرسولنا ﷺ ومعارضات سحرة فرعون لموسى عليه السلام.

فدواعيهم كانت متوفرة إلى ذلك وإلا كان لا ينقل إلينا مثل هذه المعارضات على ركتها كما لم ينقل ما هو أقوى منها .

ولا يمكن أن يقال هنا أيضا: لعل المعارضة قد وقعت ونسيت وذهب ذكرها وضبطها عن كل فرقة لأن الله صرف دواعي الناس وهممهم عن حفظها والتوفر على نقلها لأن هذا أيضا غير جائز: لأنه بمنزلة ابتداء إظهار المعجزات على أيدي الكذابين: لأنه لا فرق بين خرق العادة بقلب العصا حية، وفلق البحر وغير ذلك، وبين خرقها بصرف دواعي الناس عن نقل الأمر العظيم والخطب الجسيم، وما قد جرت العادة بحفظه وغلبة إشهاره وإظهاره على طيّه وكتمانه: لأن ذلك أجمع خرق للعادة ولأنه أيضا إفساد للأدلة وسد لطريق العلم بإثبات النبوة لأنه لوجاز ذلك، لم نأمن أن يكون جميع الرسل قد عورضوا في آياتهم، وصرف الله سبحانه دواعي الناس عن نقل المعارضة وحفظها، فلا يكون لنا مع ذلك سبيل إلى العلم بصدق واحد منهم، وقيام حجة على أمته: لأننا إذ لم نأمن كون المعارضة وإن جهلناها لترك النقل لها، لم نأمن أن يكونوا كذبه غير صادقين وذلك يضاد اعتقاد نبوتهم، وهذا كلام ليس لبعض أهل الملل على بعض، وإنما هو للطاعن على سائر النبوات: وجوابه: ما ذكرناه من أنه إفساد للأعلام وإيجاب لعجز القديم سبحانه عن الأدلة على صدق الصادق والتفرقة بينه وبين الكاذب [1] .

وتفصيل الأجوبة عن ذلك سيأتي في الرد على الطعون في دلالة المعجزة .

١٠ - ألا يظهر الخارق على يد مدعي النبوة كذبا :

يرى بعض العلماء: أنه يجوز أن تظهر المعجزات على الكذابين الذين يدعون الربوبية، ولا يجوز أن تظهر على الكذابين الذين يدعون النبوة .

لأن من يدعي الربوبية ففي بنيته ما يكذبه في دعواه وليس من ادعى النبوة في بنيته ما يكذبه أنه نبي [2] .

---

(١) انظر تفصيلات كل هذا المطاعن الباقلاني : التمهيد ص ١٢٢ :١٢٥ . وانظر كذلك القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ص ٥٨٨ :٥٩٣ وكذلك الإيجي: الموقف ص ٣٤٦ :٣٤٧ .

(٢) انظر الأشعرى : مقالات الإسلاميين جـ ٢ ص ١٢٥

: الماوردى : أعلام النبوة ص ٢٩ . : ابن حزم : الفصل جـ ١ ص ١٩١ .

فقد مكن المقنع من إطلاع قمر يرى من مسير ثلاثة أشهر أو شهر عند دعوى الربوبية، واستمر حتى قتله المسلمون، وكذلك مكن الله الدجال من خرق العادات عند دعوى الربوبية [1] .

والصحيح والذي عليه الجمهور أنه لا يجوز أن يظهر المعجز على مدعي الربوبية كما لا يجوز أن يظهر على مدعي النبوة لأن معصيته في ادعاء الربوبية أغلظ وإفكه فيها أعظم، فكان بأن لا تظهر عليه أجدر .

وإذا استوضح ما أظهره مدعي الربوبية من الآيات ظهر فسادها وبان بطلانها وخرجت عن الإعجاز إلى سحر أو شعبذة [2] .

ويدل على ذلك حديث المغيرة بن شعبة إذ قال للنبي - ﷺ -«إنهم يقولون[عن الدجال إن] معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء قال هو أهون على الله من ذلك» [3] .

وقوله ﷺ -«من سمع بالدجال فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات [4] .

وبصرف النظر عن هذا الخلاف: وهو هل ما يظهره الكاذب والدجال هو خرق حقيقي للعادة ودعواه الربوبية أو النبوة كذبا تبين كذبه لأنه في حالة ادعاء الربوبية فهو بشر من صفاته النقص، وفي حالة ادعاء النبوة فهو غير مؤيد ولابد من فارق بين المؤيد وغير المؤيد، أم هو حيل وشبه لا حقيقة لها .

فجمهور الناس من العوام لا يعرفون مثل هذه الفروق بين الحيلة والخارق الحقيقي وخاصة إذا دقت الحيلة وخفيت ولذلك كان ما ذكره الرسول ﷺ عن الدجال من الفروق إنما كان في قوله«فإن التبس عليكم فاعلموا أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور»[5] فذلك فرق يفهمه العامة والخاصة وهو فرق يرجع لحال الداعية وقيمة الدعوة لأن من كانت حاله النقص لا يصح له دعوى الكمال، وحتى وإن لم

---

(١) انظر محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٢٣ : ٢٤ .

(٢) انظر الماوردى : أعلام النبوة ص ٢٩ . وابن حزم : الفصل جـ ١ ص ١٩١ . (٣) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١٨ ص ٧٤ . (٤) رواه أحمد: فى مسنده، وأبو داود فى سننه والحاكم فى المستدرك عن عمران بن الحصين ، (٥) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١٨ ص ٥٩ .

يكن أعور ففي بشريته من النقص ما يدل على كذبه في ادعاء الربوبية .

وإخبار الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ عنه ووصفهم له من أقوى دلائل كذبه وصدقهم .

ومن ثم فإن المعجزة وإن كانت خارقا حقيقيا للعادة بعكس السحر وغيره من الخوارق غير الحقيقية إلا أن إدراك ذلك الفرق لا يستطيعه الجميع ومن ثم كان الفارق الذي يمكن للجميع فهمه وإدراكه هو حال الداعية وقيمة الدعوة سواء كان المدعي الكاذب مدعيا للربوبية أم مدعيا للنبوة .

ويضيف العقاد إلى المعجزة شرطا جديداً وهو:

١١ ـ أن تكون من حسن ورجحان :

فالعقاد يرى أن النبوة يجب أن يثبت لها أمران: أنها معجزة من حسن ورجحان وأنها معجزة من قدرة الله وحده لا من قدرة أحد سواه.

فالإعجاز وحده لا يكفي لأن يكون دليلاً على الرسالة الإلهية، لأن الإعجاز قد يكون لعمل من أعمال البشر التي لابد فيها من رجحان واحد على الآخرين، فقد يكون لغير براعة في الفعل المعجز أصلاً، ويمثل العقاد لذلك بخط الطفل الصغير الذي يعجز غيره عن محاكاته أتم المحاكاة ومع ذلك لا يصح له أن يدعيه معجزاً ويتحدى به وإن عجز الآخرون عن محاكاته [١] .

وهذا الشرط متضمن في اشتراطنا أن تكون المعجزة من قدرة الله وحده لا من قدرة أحد سواه واشتراطنا أن يكون المعجز ليس هو ما عجز غير الأنبياء عن الإتيان بمثله فقط ولكنه أيضا ما اختص بهم عليهم السلام [٢] .

١٢ ـ عدم الإعتماد على مساعدة المخاطبين في تقديم ما يصعب تقديمه .

فصاحب المعجزة لا يطلب المساعدة من المخاطبين بالمعجزة على المعجزة بتقديم ما يصعب تقديمه .

---

(١) انظر العقاد : ساعات بين الكتب ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) انظر اشتراط أن تكون المعجزة لغير حذق فى الصناعة .

كأن يطلب من أحدهم أن يقتل نفسه أو يمكنه من قتله ليحييه، أو أن يطلب من آخر أن يحضر إليه أمه أو أخته أو زوجته. .إلخ ليواقعها، فتحمل من ساعتها، وتأتي بغلام عظيم في التو واللحظه .

لأن في ذلك تهرب من إظهار دليل النبوة، وفيه كذلك دليل على الضعف والاحتياج إلى الآخرين مع أن المعجزة أساسا دليل على أن صاحبها مؤيد من السماء، وليس في حاجة إلى الخلق .

١٣ - عدم معرفة النبي السحر:

ويستدل على ذلك محمد بن إبراهيم الوزير: بأنه لو كان يعرفه لكان إما أن يعرفه بالنظر أو بالتعلم من علماء السحر، أو بالقراءة لكتبهم، ولا رابع لكن كلها باطل فبقي أنه ما كان يعرف السحر .

أما أن السحر لا يدرك بالنظر فيستدل عليه بأن السحر راجع إلى معرفة الخواص مثل العلم بأن المغناطيس يجتذب الحديد، وخواص الأشياء وطبائعها لا تدرك بالفكر وإلا وجب فيمن أطال فكره في الأشياء أن يعرف طبائعها .

ويستدل كذلك على أن النبي ما عرف السحر بالتعلم من السحرة بأنه إما أن يكون قد قرأ عليهم الأزمنة الطويلة حتى تيقن علومهم، وهذا القسم باطل لأنه لو كان لعلمه قومه، ولو علموه لقدحوا عليه بذلك، ولو قدحوا لنقل إلينا، لكنه لم ينقل عن أحد من حذاقهم، وأهل الجدل من فطنائهم قدح بذلك فعلمنا أن المخالطة للسحرة ما كانت من الأنبياء .

وإما أن يكون قد علمه السحر أحد من السحرة في ساعة أو يوم على وجه يجب ألا يعلمه قومه ولا غيرهم من المنكرين للنبوة .

فهذا القسم باطل لأنه يستحيل أن يأتي رجل فيتعلم في مدة قصيرة لا يشعر بها من السحر والخفة ما يبلغ به إلى مرتبة في خرق العادات لا يبلغ أقرب درجاتها من أهل الذكاء المفرط من قضى جميع عمره، وقطع كل دهره. واشتغل في عامة زمانه في تعلم هذا الفن، وتلقن هذا العلم .

وأما أنه لا يعرف السحر من قبيل قراءة الكتب فنبينا عليه السلام كان أميا لا

يقرأ ولا يكتب، وذلك متواتر [1] .

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ [2] وقوله تعالى ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ [3] وقد حكى القرآن إقرار الكفار بذلك في قوله تعالى﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه﴾ [4] فقالوا اكتتبها ولم يقولوا كتبها، وأشاروا إلى أنه لا يقرأ بقولهم فيما حكى الله عنهم (فهي تملى عليه) ولم يقولوا فهو يمليها.

وإذا كان رسولنا ﷺ قد جعله الله تعالى أمياً كي يقطع عنه الوهم ببعده عن أرباب هذه العلوم فموسى عليه السلام الذي ولد بأرض السحر والسحرة خرج إلى شعب شعيب وعاش فيه طويلا بحيث لا يتوهم فيه مخالطة السحرة .

ثم إن كل من له شأن عظيم فلابد له من أعداء ومنافسين وأحباء ومعجبين وأقرباء مقربين يعنون بمعرفة أمره ولا يخفى عليهم من أمره شيء .

والأنبياء عليهم السلام ليس هناك من البشر من هو أعظم منهم، ومن ثم فهم أصحاب النصيب الأكبر في المحبة والعداوة، ومن ثم العناية بمعرفة أخبارهم وأحوالهم وكل ما يكون منهم، والناظرون في أحوالهم يجدون ما يحيل نسبتهم إلى الكذب ويدل دلالة قاطعة على صدقهم.

إلا أنه إذا كان السحر أنواعاً كثيرة، وكان خط الرمل من هذه الأنواع[5] وقد قال النبي ﷺ[6]: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك» .

فقد يمكن أن يقال إن ذلك لا يطعن في اشتراط «عدم معرفة النبي السحر» لأن ذلك النبي قد يكون أول من خط الرمل، فيكون ذلك معجزاً له .

إلا أن ذلك يعارضه ما يقال من أن ستة من الأنبياء كانوا يخطون الرمل هم آدم، وإدريس، ولقمان، وإرميا، وإشعياء، ودانيال [7] .

---

(١) انظر محمد بن إبراهيم الوزير: البرهان القاطع ص ٢٤ : ٢٦. (٢) العنكبوت : ٤٨ .(٣) يونس : ١٦ .
(٤) الفرقان : ٥ . (٥) انظر أنواع السحر في الفصل الأول من الباب الثاني.
(٦) رواه مسلم: في صحيحه جـ ١٤ ص ٢٢٤
(٧) انظر : . Thomas Patrick Hughes : A Dictionary of Islam p 202

فإن صح ذلك، وكـان الخط معجزاً للأول منهـم، فليس معجزاً للبـاقين وقد شاركهم في علمه من ليسوا بأنبياء .

ومن ثم يمكن أن يقال أيضاً إن النبي و إن كـان علم ذلك العلم بالتعلم، فإن ذلك لا يطعن في نبوته، فـقد تكون معجـزته من جنس بعيد كل البـعد عن جنس ذلك العلم.

ثم إنه إذا كان من السحـر ما لا يدرك بالتعلم [1] فإني أرى أن اشتراط عدم معرفة النبي السحر مجرد قرينة على الصدق قد تتخلف .

١٤ - أن تكون جهرة أمام الجميع :

قال تعالى على لسان قوم إبراهيم: [2] **﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾** . وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: [3] **﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾** .

وكان هذا من أكبر مـقاصد موسى عليه السلام: أن يظهـر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحـضرة الناس، ولهذا قال(موعدكم يوم الزينة) وكـان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم(وأن يحشر الناس ضحى)أي من أول النهار في وقت اشتداد ضـيـاء الشمس، فـيكون الحـق أظهر وأجلـى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليـلا في ظلام، كيما يروج عليهم مـحالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة، لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن الله يظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط .

وهذا هو منطق المعجـزة أما ما يروى في الكتاب المقـدس من فرض الصمت في كثير من الأحوال بعد انتصار المسيح على الموت أو المرض بإذن الله .

كما في إنجيل مرقس مثلا في مواطن كثيرة مثل :

- الممسوس في كفر ناحوم [4] .
- أشفية وتعزيم عند المساء في كفر ناحوم [5] .

---

(١) انظر اشتراط ألا تكون المعجزة من الصناعات المكتسبة بالتعلم . (٢) الأنبياء :٦١ .
(٣) طه:٥٩. (٤) انظر مرقس الأصحاح (١) آية (٤٠ ـ ٤٥) .
(٥) انظر السابق الأصحاح (١) آية (٣٢ ـ ٣٤) .

- الأبرص [1].

- موجز لأعمال المسيح في شفاء المرضى [2].

- المنزوفة وابنة يائيرس [3].

- الأصم والأبكم [4].

- أعمى بيت صيدا [5].

ففي الكتاب المقدس نفسه انتقاد لذلك الموقف ففيه: «فقال له أخوته انتقل من هنا، واذهب إلى اليهودية لكي يرى تلاميذك أيضا أعمالك التي تعمل لأنه ليس أحد يعمل شيئا في الخفاء وهو يريد أن يكون علانية، إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم [6].

إلا أنه قد تكون المعجزة سراً في بعض الأحوال لحكمة من الحكم ككونها في بداية الدعوة، خوفا من بطش المعارضين إلى أن يقوى شأن المؤمنين.

ولذلك كان رد المسيح على أخواته في(تتمة)النص السابق«إن وقتى لم يحضر بعد»[7]

وفي القرآن الكريم﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [8] إلى أن قوى شأن المسلمين وأمكنهم الدفاع عن أنفسهم فكان قوله تعالى﴿فاصدع[9] بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزءين﴾ [10].

بل قد لا يشاهد المعجزة أحد من المكلفين إلا شخص النبي فقط كمعجزة المعراج كما سيأتي بيانه [11].

وبالتالي فكون المعجزة سراً أو جهراً لا يعتبر شرطاً في كون الخارق الحقيقي

---

(١) انظر السابق الأصحاح (١) آية (٤٠ ـ ٤٥).
(٢) انظر السابق الأصحاح (٣) آية(٧ ـ ١٢).
(٣) انظر السابق الأصحاح (٥) آية(٢١ ـ ٤٣).
(٤) انظر السابق الأصحاح (٧) آية(٣٢ ـ ٣٧).
(٥) انظر السابق الأصحاح (٨) آية(٢٢ ـ ٢٦).
(٦) يوحنا الأصحاح (٧) آية (٣ ـ ٤).
(٧) يوحنا: الأصحاح (٧) آية (٦).
(٨) الشعراء : ٢١٤. (٩) فاصدع:أى أعلن
(١٠) الحجر :٩٤:٩٥.
(١١) انظر الملحق رقم (١).

حقيقياً، بل إن ذلك لا يعدو أن يكون قرينة على الصدق [1] وعلى أن هذا الخارق حقيقي وأن صاحبه لا يخاف المعارضة، ولكنها قد تتخلف .

١٥ - أن تقع على يد فاضل خير:

فهناك من يرى أن الفرق بين المعجزة والسحر لا يعود إلى نفس طبيعة الخارق، ولكن إلى أن السحر لا يحدث إلا على يد فاسق والمعجزة لا تحدث إلا على يد الصادق خير .

وهناك من يرى أن هناك فارق يعود إلى نفس طبيعة الخارق ولكن المعجزة لا تحدث إلا على يد الخير الصادق، والسحر لا يصدر إلا من الفاسق .

وما أراه هو أن هناك فارق يعود إلى نفس طبيعة الخارق وأن المعجزة لا تحدث إلا على يد الخير الصادق أما السحر فلا يشترط أن لا يحدث إلا على يد الفاسق، فقد يحدث على يد الخير الصالح .

- وتفصيل ما سبق:

يقول الجويني: [2] «إن السحر لا يظهر إلا على يد فاسق» ويعرف الألوسي السحر بأنه أمر يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح [3] .

ويرى الغزالي أن العلاقة بين النبي والساحر ليست هي علاقة تفاوت وتفاضل فقط، ولكنها أيضا علاقة تضاد .

يقول الغزالي في هذا الصدد: [4] «إن التخيل في الحيوانات على تفاوت وتفاضل وتضاد» .

ويوضح ذلك بقوله [5] أما التضاد فعقل النبي وعقل الكاهن وأما الترتب فكعقل النبي وعقل الصديق» .

---

(١) وإذا كانت كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم كما يقول ابن تيمية وإذا كان الولى غالبا ما يستر الكرامة، ولا يطلب لها العلانية، فلأن الكرامة إكرام للولى وبشرى له بعد أن قامت الأدلة القاطعة على النبوة التى لولاها ما سلك الولى شريعة النبى ومن ثم تسقط الحاجة إلى كون الكرامة علانية بعكس المعجزة، هذا بالإضافة إلى أن دلالة الكرامة على الولاية ليست قطعية بعكس دلالة المعجزة على النبوة.

(٢) الجوينى : الإرشاد ص ٢٧١ .
(٣) انظر الألوسى : روح المعانى جـ ١ ص ٣٣٨ .
(٤) الغزالى :معارج القدس ص ١٥٨ .
(٥) السابق ص ١٦٣ .

ويقول[1] «والذي يقع له هذا الكمال في جبلة النفس ثم يكون خيراً متحلياً بالسير الفاضلة ومحامد الأخلاق وسير الروحانيين مجتنبا عن الرذائل ودنيات الأمور، فهو ذو معجزة من الأنبياء أي من يدعي النبوة ويتحدى بها وتكون هذه الأمور مقرونة بدعوى النبوة أو كرامة من الأولياء. . . ثم من يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث».

ويكاد يتطابق ذلك الكلام مع كلام ابن سينا[2] «فالذي يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً، مزكيا لنفسه، فهو: ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء وتزيده تزكيته لنفسه في هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته، فيبلغ المبلغ الأقصى

والذي يقع له هذا ثم يكون شريراً، ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث، وقد يكسر قدر نفسه من غلوائه في هذا المعنى، فلا يلحق شيئا» .

فكل هذه النصوص السابقة تربط بين السحر والشر، والمعجزة والخير، وصحيح أن المعجزة لا تحدث إلا على يد الصادق الخير، لكن لا يشترط في السحر أن يكون على يد الفاسق الكاذب.

وربما كان سبب الخطأ في ذلك في رأيي هو الربط بين السحر، وتسخير الجن ثم الخلط بين الجن والشياطين مع أن استخدام الجن ليس من السحر في نظر بعض العلماء، وحتى من جعل استخدام الجن وتسخيرهم من السحر، فليس ذاك كل السحر فللسحر أنواع عديدة.

وحتى وإن كان استخدام الجن هو كل السحر فمن الجن من هو مسلم كما أن منه من هو كافر، وكما يسخر الإنسان الكافر من الجن يمكنه تسخير المؤمن قال تعالى في حق الجن وعلى لسانهم: ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا﴾ [3] بعكس الشياطين فكلهم كفرة كما سيأتي بيانه .

وإذا كنا نرجح الرأي القائل بأن السحر جنس يدخل تحته أنواع كثيرة [4]،

(١) السابق ص ١٦٤ .

(٢) ابن سينا :الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٨ ـ ٨٩٩ .

(٣) الجن: (١١).

(٤) انظر أنواع السحر في الفصل الأول من الباب الثاني .

منها خط الرمل وقراءة الفنجان وغير ذلك .

فقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال[1] «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك» فلا ارتباط بين السحر والشر .

بل إن الرازي يروي الإجماع على الارتباط بين السحر والخير يقول الرازي[2] «أجمعوا على أن صاحب هذا العمل(السحر) كلما كان إقباله على أبواب البر والخير أكثر كانت أعماله أكمل، لأن الغالب على طبيعة العالم هو الخير، وأما الشر فمغلوب فإذا اعتضد عمله بالجانب القاهر الغالب كان ذلك العمل أكمل وأفضل»

ويذكر الرازي في كتابه النبوات للسحر أنواعا عشرة[3] منها ما هو مبني على خواص الأدوية المعدنية والنباتية والحيوانية، ومنها ما هو مبني على قوة الوهم وتصفية النفس ومنها السحر المجازي المبني على الحيلة وخفة اليد، ومنها تسخير الجن، وشرطه المشاكلة بين المسخِّر والمسخَّر في الفسق أو الصلاح

ولا أريد هنا حصر أنواع السحر وتقسيمها بين ما يتطلب الصلاح وما يتطلب الفسق والفساد وإنما ما أعنيه هنا هو أن من السحر ما يشترط الفسق والفجور. كالحال عند تسخير الجن الفاسق الفاجر ومنه ما يشترط الخير والصلاح كالحال عند تسخير الجن الصالح الخير وكالحال في السحر المبني على تصفيه النفس وزيادة قوتها.

ومنه ما لا يشترط شيئا ولا علاقة له لا بخيرية صاحبه ولا بعدمها وذلك كالحال في السحر المبني على خواص الأدوية والسحر المجازي.

وقوله تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾[4] .

---

(١) رواه مسلم : في صحيحه جـ ١٤ ص ٢٢٤ وقد ذكرنا من قبل ما يقال من أن ستة من الأنبياء كانوا يخطون الرمل .

(٢) الرازى : النبوات ص ٢٢٢.

وانظر كذلك ـ أحمد حسين الشاعر:أسرار الفنجان ص ٢٢ ـ أنيس منصور : القوى الخفية ص ٩٩ .

(٣)انظر الرازي : النبوات ص ٢٠٠ – ٢٠٣ .

(٤)الشعراء : (٢٢١ ، ٢٢٣) .

فالحديث هنا عن نوع واحد من أنواع السحر تستخدم فيه الشياطين، وليست كل أنواع السحر كذلك .

ويقول ابن خلدون:[1] «والساحر إنما يفعل ذلك من لدن نفسه وبقوته النفسانية، وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال. . .[ويقول] والسحر إنما يوجد لصاحب الشر في أفعال الشر في الغالب» فليس ذلك دائما .

وأما قوله تعالى : **﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾**[2] فلا يقصد بالذم هنا السحر كعلم، ولكن المقصود ذم السحرة الكاذبين .

وأما قوله تعالى : **﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾**[3] فالذم هنا إنما يعود على السحر إذا كان غرضه الإفساد .

«وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأحد أمرين: إما لتمييز ما فيه كفر من غيره، وإما لإزالته عمن وقع فيه، فأما الأول فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا تستلزم منعا، كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان لأن كيفية ما يعمله الساحر إنما هي حكاية قوله أو فعله بخلاف تعاطيه والعمل به .

وأما الثاني: فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق، فلا يحل أصلا، وإلا جاز للمعنى المذكور [4].

«وعن قتادة عن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك، ويقول لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهى الله عما يضر، ولم ينه عما

---

(١) ابن خلدون :المقدمة ص ٥٠٢ .

(٢) يونس ٧٧ .

(٣) يونس : ٨١ .

(٤) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري كتاب الطب،باب السحر جـ ١٢ ص ٣٣٥ .

ينفع، وقد أخرج أبو داود في المراسيل عن الحسن البصري رفعه (النشرة[1] من عمل الشيطان)ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر، وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال: لا بأس به، وهذا هو المعتمد .

ويجاب عن أن(النشرة من عمل الشيطان) أن ذلك إشارة إلى أصلها، ويختلف الحكم بالقصد، فمن قصد بها خيراً كان خيراً وإلا فهو شر، ثم إن الحصر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويذ» [2] .

وفي حديث سحر الرسول ﷺ سألته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أفلا تنشرت» أي وكأنها تقول له تنشر، ورد عليها ردا لا اعتراض فيه بل إقرار«أما والله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» [3] فهذا يدل على الجواز والجواز يدل على أنه لا ارتباط بين السحر وبين الشر .

١٦ ـ أن لا تتقدم المعجزة على الدعوى :

فلو ظهرت آية وانقضت، فقال قائل أنا نبي والذي مضى كان آيتي فلا يصدق إذ لا تعلق لما انقضى بدعواه فلا يكون بالدلالة على صدقه أحق منه بالدلالة على صدق غيره، ويطالب به بعد، فلو عجز كان كاذبا قطعا .

فإن قيل: إذا نظرنا إلى صندوق وألفيناه خلوا، وأقفلناه وتركناه بمرأى منا، فقال مدعي النبوة: آية نبوتي أنكم تصادفون في هذا الصندوق ثياباً، فإذا فتحنا الصندوق وألفينا المتاع كما وصف، فيرى الجويني والإيجي وغيرهما أن ذلك آية، وإن جاز تقدم اختراع ذلك المتاع على دعواه، لأن قوله المبني على الغيب آية وذلك مطابق لدعواه [4] .

ويعترض ابن كمال باشا على ذلك اعتراضا أراه مقبولا فيقول: [5]«إن

---

(١) قال ابن الجوزى: النُّشْرَة: حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر (السابق جـ٢ ص ٣٤٤). (٢) السابق نفس الموضوع .

(٣) انظر صحيح البخارى بشرح فتح البارى جـ ١٢ ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

(٤) انظر الجوينى: الإرشاد ص ٢٦٥ . الإيجى : المواقف ص ٣٤٠ .

(٥) ابن كمال باشا : مجموعة الرسائل رسالة فى حقيقة المعجزة ودلالتها جـ ١ ص ١٤٢ .

الصالح لأن يكون معجزاً الإخبار عن الغيب عن الثقلين، وأما الغيب عنا لا عن الجن فالإخبار عنه لا يصلح معجزاً لاحتمال أن يكون بإعلام الجن» إلا إذا انتفى ذلك الاحتمال لسبب من الأسباب.

وأما كلام عيسى عليه السلام في المهد وتساقط الرطب الجني عليه من النخلة اليابسة وما حدث لرسولنا ﷺ من شق بطنه، وغسل قلبه وإظلال الغمامة وتسليم الحجر والمدر عليه فيقول الإيجي:[1] «إنما هي كرامات وظهورها على الأولياء جائز والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الأولياء» .

وأرى وجوب التفرقة بين كلام عيسى عليه السلام في المهد ودعواه النبوة وبين غير ذلك من إرهاصات النبوة فالإرهاصات من شق بطن رسولنا ﷺ وغسل قلبه وإظلال الغمامة له ﷺ وغير ذلك من الإرهاصات والكرامات، فلا تدل دلالة قطعية على النبوة .

أما كلام عيسى ـ عليه السلام ـ في المهد وادعاؤه النبوة فيدل في نفسه دلالة قطعية على نبوته، ومن ثم فهو معجزة له عليه السلام .

ولكن هل قامت نبوته عليه السلام بتلك المعجزة في ذلك الوقت، وهو ما زال طفلا رضيعاً؟ أم أن تلك الخارقة إنما أبرأت ساحة أمه إكراما لها ودلالة على أهليته للنبوة عليه السلام ؟فذلك أمر خلافي بين العلماء ولا يعنينا بحثه هنا .

وما يعنينا أن كلامه عليه السلام معجزة تدل في نفسها دلالة قطعية على نبوته أو على تأهيل الله تعالى له بالنبوة وهذا هو تعريفنا للمعجزة .

فمعجزة عيسى عليه السلام هنا لها خصوصية معينة وعدم التفرقة بينها وبين الإرهاصات إنما نتج من الإصرار على تعميم القواعد وإطلاقها ومحاولة ضم كل الجزئيات دائما تحت قاعدة واحدة والأشياء تختلف ولا تتشابه دائماً، وبالنظر في الجزئيات تعرف الكليات وليس العكس،

يقول القاضي عبد الجبار:[2] «فهذه الطريقة التي أوجبناها من أن يكون

---

(١) الإيجي : المواقف ص ٣٤٠ .

(٢) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٩ : ٥٧٠ .

المعجز واقعا عقيب دعوى المدعي للنبوة إنما أوجبناها إذا لم يكن المعجز نفس المدعي للدعوة، فأما إذا كان كذلك، نحو كلام عيسى عليه السلام في المهد فادعاؤه النبوة فلا» أي فلا يشترط تقدم الدعوى على المعجزة، وهكذا ورد الكتاب بقوله ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾[1] فقد قارنت المعجزة الدعوى لأنه لا فرق بين أن تكون نفسها على حد الأعجاز أو يتعقبها الإعجاز في هذا الباب [2] .

فكل ما دل دلالة قطعية على النبوة فهو معجزة ككلام عيسى عليه السلام في المهد وادعائه النبوة .

١٧ - أن لا تتأخر المعجزة عن الدعوى :

فإذا ثبت صدق المدعي للنبوة بمعجز وتراخى عن دعواه معجز آخر جاز لثبوت صدقه بدلالة أخرى غير هذه الدلالة المتأخرة [3] .

فإن كلف المدعي الناسَ التزام الشرع ناجزاً والآية موقوفة، فقد كلفهم شططا، وإن نص على الأحكام وعلى التزامها بوقت ظهور الآية صح ذلك [4] .

ويرد السنوسي في شرح الكبرى على المعتزلة لما صرحت بمنع ذلك وبنوا ذلك على القول بالتحسين والتقبيح فقالوا لو تأخرت حجته إلى بعد وفاته لكان في حال حياته لا يجب توقيرة وتعظيمه والوفاء بحرمته ورعاية حق النبوة والرسالة له، وذلك منع للخلق من الرتب السنية والمقامات العليةوهذا لا يحسن ممن وجب أن يكون حكيماً لطيفاً راعيا لصلاح البرية.

ويبطل السنوسي قولهم من وجهين:

ـ أحدهما : من جهة إبطال التحسين والتقبيح ومراعاة الصلاح والأصلح.

ـ الثاني :على تقدير تسليم هذا الأصل لهم، فقد يقال لا يمتنع أن يكون

---

(١) مريم : (٣٠) .

(٢) انظر القاضي عبد الجبار : المغني ١٥ / ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٣) انظر القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠ .

(٤) انظر الجويني : الإرشاد ص ٢٦٥ .

وانظر كذلك الإيجي : المواقف ص ٣٣٦ .

صلاح بعض الخلق في ذلك إذ قد يعلم الله من طائفة حسد الأحياء ومنافستهم واستحكام هذا الخلق فيهم ويزول عنهم هذا الخلق بموت محسودهم ويتلقون حينئذ ما يكون منه بالقبول، وأكثر الكفرة والفجرة إنما أتوا من حسد وحب رياسة وأنفة من التبعية فلا يمتنع في المعلوم على أصل التحسين والتقبيح أن يكون صلاح قوم في تأخير المعجزة .

ويرد السنوسي كذلك على القاضي أبو بكر الباقلاني حين يحتج بأن الرسالة مرجعها إلى تعلق الخطاب بالرسول، وذلك ممتنع بعد الموت، فكيف تكون الآية لاتتحقق إلا في وقت امتناع ما هى آية عليه؟ : بأنها تبين بعد موته أنه كان مخاطبا بتبليغ ما بلغه، ولا يضر امتناع تعلق الخطاب به وجود الآية فإنها تدل على ما سبق من دعواه وإذا جاز تأخير الآية إلى زمن مضروب في حال الحياة فيجوز أن تتأخر إلى أجل مضروب بعد الوفاة، فيستبين بذلك صدقه في الدعوى السابقة .

ويذكر السنوسي أنه ربما يحتج القاضي بأن القول بذلك يؤدي إلى إبطال الكرامة إذ ما من كرامة إلا ويجوز على هذا أن تكون معجزة لنبي تأخرت بعد وفاته .

ويجيب عليه بأن غاية ذلك بطلان كون الكرامة دليلا قطعياً على ولاية من ظهرت على يده لتطرق هذا الاحتمال فيها، ولا ريب فى ذلك فإن دلالة الكرامة على الولاية ليست قطعية، ولو أمنا فيها من هذا الاحتمال الذي ذكر لاحتمال كونها استدراجا ويكون من ظهرت على يده من أهل عداوة الله تعالى [1] .

وأما احتمال كون الكرامة معجزة لنبي تأخرت بعد وفاته، فيقول عنه ابن تيمية: [2] «وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول » وهذا صحيح.

وأما احتمال كون الكرامة استدراجا فيقول عنه ابن تيمية [3] «وكثير من هؤلاء لا يعرف أن ذلك من الجن . . . » .

---

(١) انظر السنوسى :شرح الكبرى ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢ .

(٢) ابن تيمية :الفرقان ص ١٢٩ .

(٣) السابق ص ٢٥٩ .

ويقول ابن عربي[1] «ولا يصح كون ذلك كرامة إلا بتعريف إلهي لا بمجرد خرق العادة» وهذا صحيح أيضاً .

وينتقد السنوسي ما ذهب إليه الباقلاني من أن تأخير ما يدل على الرسالة إلى الوفاة قد تضيع معه فائدة البعثة وهي العلم بأحكام الله تعالى، لعدم وجود الباعث لهم عادة على حفظ ذلك عنه، بأن ذلك قصاراه استبعاد وجود الحفظ منهم لشرعه، فلا يصح أن يكون دليلا على عدم الجواز، على أنه يمكن تدوينه على وجه يتأتى حفظه بعد موته، هذا إن قلنا بأن تكليف ما لا يطاق غير سائغ وأما إن سوغناه فالأمر في ذلك واضح [2] .

والصواب هو جواز تأخر المعجز الحسي وإن لم يثبت صدق المدعي بمعجز حسي آخر، وذلك اكتفاء بالإعجاز المعنوي أي بقرائن الصدق المتمثلة أساساً في حال الداعية وقيمة الدعوة .

وتتأكد صحة ذلك الجواز بما سيأتي بيانه من أن المعجزة الحسية ليست أصلاً شرطا للنبوة [3] .

١٨ - ألا يكون الخارق في زمن نقض العادات :

فقد اشترط بعض العلماء أن لا يكون الخارق للعادة الذي يقصد به التصديق في زمن انتقاض العادات وهو قرب قيام الساعة [4] .

وأرى أنه لا معنى لاشتراط مثل هذا الشرط، وذلك لأن «أشراط الساعة هي من آيات الأنبياء من جوه: منها أنهم أخبروا بها قبل وقوعها فإذا جاءت كما أخبروا كان ذلك من آياتهم. ومنها أنهم أخبروا بالساعة، فهذه الأشراط مصدقة لخبرهم بالساعة وكل من آمن بالساعة آمن بالأنبياء، وكل من كذب الأنبياء كذب بالساعة»[5]

---

(١) ابن عربي :الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٦٩ .

(٢) انظر السنوسي : شرح الكبرى ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ .

(٣) انظر حديثنا عن أن دلالة المعجزة المعنوية تغني عن المعجزة الحسية في الفصل الأول من الباب الثالث.

(٤) انظر البغدادي : أصول الدين ص ١٧٠ .

(٥) ابن تيمية : النبوات ص ٢١٤ .

وبعد إخبار الأنبياء بها لا يمكن أن يدعيها أحد أية له كذبا .

١٩ ـ اشتراط الإدعاء والتحدي :

يشترط كثير من العلماء في المعجزة أن تكون مقرونة بدعوى النبوة والتحدي، وإن كان بعض هؤلاء العلماء يرى أن السحر لا يقارن المعجزة في شيء كمحمدعبده[١] إلا أن بعضا آخر منهم يرى أنه إن لم تكن دعوى نبوة وتحدي فقد يجور ظهور ذلك على يد الفاسق لأنه مقدور في نفسه.

يقول الغزالي [٢] «فإن كان مع التحدي فإنا نسميه معجزة، ويدل بالضرورة على صدق المتحدي، وإن لم تكن دعوى فقد يجور ظهور ذلك على يد فاسق لأنه مقدور في نفسه» .

ويتفق الباقلاني والإيجي في أن الساحر إذا احتج بالسحر وادعى به النبوة أبطله الله تعالى عليه بوجهين: أنساه عمل السحر جملة، أولم يفعل سبحانه عند قوله وما يفعله في نفسه من الأفعال شيئا في السحور من موت أو سقم أو بغض.

والوجه الآخر: أن نجد خلقاً من السحرة يفعلون مثل فعله ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده، فينتقض بذلك ما ادعاه، ويبطل.

ويرى الباقلاني أن الرسول إذا ظهر عليه مثل ذاك وادعاه آية له وتحدى بمثله وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن مع أنه قد كان يظهر من قبل، صار ذلك خرقا لعادة البشر، وعادة الكهنة والسحرة خاصة، ولم يبعد أن يقال: إن هذه الآية أعظم من غيرها وإن لها فضل مزية، ويرى أن المنع لهم عند هذا التحدي من النبي يكون من الله سبحانه بوجهين:

أحدهما: أنه ينسيهم السحر والكهانة ويذهب بحفظ ذلك وعلمه من قلوبهم وذلك آية عظيمة وخرق للعادة .

والوجه الآخر: أن يبطل الله تعالى السحر بأن لا يفعل سبحانه عند كلامهم وما يفعلون في أنفسهم سقم أحد ولا موته ولا تفرقة بينه وبين زوجته ولا القدرة

---

(١) أنظر محمد عبده :رسالة التوحيد ص ٩٠ .

(٢) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٥ .

فيهم على الصعود على خيط والتصرف في الجو فيكون هذا أيضاً آية للناس عظيمة[1] .

ويستدل الباقلاني على أن المعجز لا يكون معجزاً إلا إذا فعل عند احتجاج الرسول به لصدقه وتحديه بمثله بأنه قد ثبت عنده أنه ليس بمعجز لجنسه، لأن الله عز وجل لو ابتدأ بفعله نحو أن يحي ميتا ويطلع الشمس من مغربها، ويزلزل الأرض، ويظلنا بالسحاب، لا عند دعوى أحد للرسالة، وكون ذلك آية له لم يكن ما يفعله الله سبحانه من ذلك معجزاً وإن كان من جنس المعجز فلذلك لا يكون إحياء الأموات يوم القيامة وإطلاع الشمس من مغربها وطى السموات وأمثال ذلك من آيات الساعة آية لأحد، وإن كان مثله وما هو من جنسه لوفعل في وقتنا هذا عند تحدي الرسول لكان آية له، وحجة لنبوته، ويستدل على ذلك أيضا بحصول الكرامة على أيدي الصالحين. وبأنه لو كان المعجز معجزاً لجنسه، لم يصح أن يوجد من جنسه ما ليس بمعجز [2] .

وحاصل ما سبق :

- ليس هناك فارق بين المعجزة وغيرها من الخوارق يعود إلى نفس طبيعة الخارق، وإنما الفرق هو أن المعجزة شرطها الدعوى والتحدي ومنع الله غير النبي من معارضته وإن كان نفس المعجز غير خارق بالنسبة لهم وإن كانت لهم قدرة عليه قبل تحدي النبي به وادعائه آية له .

والساحر إذا ادعى النبوة كذبا إما أن ينسيه الله السحر عندئذ، وإما أن لا يفعل عند سحره شيئا في المسحور وإما أن يقيض له من يعارضه ويبين كذبه.

ودليل ذلك: أن ظهور الخارق على يد الكاذب مقدور في نفسه وأن الله تعالى قد يخرق العادات لا عند دعوى أحد للرسالة كعلامات الساعة، فلا تكون معجزة لأحد وإن كانت من جنس المعجز وأنه تعالى يخرق العادات على أيدي الأولياء والصالحين على جهة الكرامة ولو كان المعجز معجزا لجنسه لم يصح أن يوجد من جنسه ما ليس بمعجز .

---

(١) انظر الباقلاني :البيان ص ٩٤ :٩٧ وانظر كذلك الإيجي : المواقف ص ٣٤٦ .

(٢) انظر السابق ص ٤٧ .

وجواب ذلك :

أن المعجزة إنما تفترق عن السحر بالنظر إلى طبيعة الخارق نفسه.

فالمعجزة أمر خارق للعادة خرقا حقيقياً بينما السحر من الخوارق غير الحقيقية كما سيأتي بيانه .

والدليل لا يكون دليلا حتى يكون مستلزما للمدلول متى وجد وجد المدلول وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول وتارة مع عدمه فليس بدليل، صحيح أنه لا يمتنع أن يكون الشيء الواحد دليلا على أمور كثيرة لكن يمتنع أن يوجد مع انتفاء مدلوله فما دل على النبوة قد يدل على أمور أخرى من أمور الرب تبارك وتعالى لكن لا يمكن أن يوجد مع انتفاء النبوة [1] .

وإذا كانت المعجزة مثل السحر فلم كان أحدهما دليلا دون الآخر؟ ولم اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ .

«والرب في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها ﴿سنه الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[2] وقال ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ [3] وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختص بها قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره، ويختص به، ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها فمن خصه الله بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك [4] فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة» [5] .

ثم إن قول الباقلانى الذى يرويه عنه ابن حزام من أن الله تعالى لا يقدر

---

(١) انظر ابن تيمية :النبوات ص ٥ ـ ٢٥٥.
وانظر كذلك الرازى:الأربعين جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٢) الفتح : ٢٣ .

(٣) فاطر : ٤٣ .

(٤) انظر اشتراطنا فى المعجزة أن تكون خارقا حقيقيا للعادة وكذا اشتراطنا أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه وانظر كذلك حديثنا عن الفروق بين المعجزة وغيرها فى الباب الثاني وكذا حديثنا عن نسبية الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٥) ابن تيمية :النبوات ص ٢١٩.

على إظهار آية على يد كاذب ففي ذلك تعجيز للباري تعالى، وهو أيضا تعجيز داخل في جملة المحال ذلك أنه جعل الله تعالى قادراً على إظهار الآيات على كل ساحر، فإن علم أنه يقول إنه نبي لم يقدر على أن يظهرها عليه، وهذا قول في غاية البطلان، لأن من قدر على شيء لم يجز أن يبطل قوته عليه علمه بأن ذلك الذي يظهر فيه الفعل يقول أنا نبي[1].

ثم إن الباقلانى فى موقفه هذا يتناقض مع ما ذهب إليه من قبل من أن معجزة النبي«مما لا يدخل تحت قدر العباد لامتناع كونها مقدورة لهم. . . . لا لعجزهم عنها ومنعهم منها كما سبق إيضاحة[2].

وإذا كانت المعارضة إنما تكون بالمثل وإذا كانت حجة النبي عندهم هي مجموع دعوى النبوة والإتيان بالخارق «فيلزم على هذا أن تكون المعارضة بأن يدعي غيره النبوة ويأتي بالخارق وعلى هذا فليست معارضة الرسول بأن يأتوا بالقرآن أو عشر سور أو سورة بل أن يدعي أحدهم النبوة ويفعل ذلك، وهذا خلاف العقل والنقل » [3] .

و«الدليل الدال على المدلول عليه ليس من شرط دلالته استدلال أحد به، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلا إلى علم فهو دليل، وإن لم يستدل به أحد فالآيات أدلة وبراهين تدل سواء استدل بها النبي أو لم يستدل وما لا يدل إذا لم يستدل به لا يدل إذا استدل به، ولا ينقلب ما ليس بدليل دليلا إذا استدل به مدع لدلالته» [4] .

«بل السكوت عن هذه الأمور أبلغ في الدلالة، والنطق بها لا يقوي الدليل والله تعالى لم يقل فليأتوا بحديث إلا حين قالوا افتراه ولم يجعل هذا القول شرطا في الدليل بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل»[5] .

ولو كان ما قالوا من اشتراط التحدي صحيح لسقطت أكثر آيات الرسول ﷺ كنعبان الماء من بين أصابعه وإطعامه المئين والعشرات من صاع شعير، وعناق، ومرة أخرى من كسر ملفوقة في خمار وكتفله في العين فجاشت بماء غزير إلى اليوم، وحنين الجزع، وتكلم الذراع وشكوى البعير والذئب والإخبار بالغيوب، وتمر

(١) انظر ابن حزم جـ٥ ص ١٠٩ .
(٢) انظر الباقلاني : البيان ص ٨ : ١٣ .
(٣) ابن تيمية : النبوات ص ١٠٣ .
(٤) ابن تيمية : النبوات ص ١٠٦ .
(٥) السابق ص ١٤٢ .

جابر وسائر معجزاته العظام، لأنه عليه السلام لم يتحد بشيء من ذلك كله أحداً ولا عمله إلا بحضرة أهل اليقين من أصحابه رضي الله عنهم ولم يبق له آية حاشى القرآن، ودعاء اليهود إلى تمني الموت، وشق القمر فقط، وكفى نحسا بقول أدى إلى مثل هذا.

فإن ادعوا أنه عليه السلام تحدى بها من حضر وغاب كذبوا واخترعوا هذه الدعوى لأنه لم يأت في شيء من تلك الأخبار أنه تحدى بها أحداً وإن تمادوا على أن كل هذه ليست معجزات ولا آيات أكذبهم رسول الله ﷺ بقوله إذ فعل بعض ذلك أشهد أني رسول الله [1] .

ولم ينقل «التحدي عن غيره من الأنبياء مثل موسى والمسيح وصالح ولكن السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم» [2] .

ولو كان ما قالوا، وجاز ظهور معجزة من ساحر لا يتحدى بها لأمكن أن يتحدى له بعد موته من ضل فيه [3] .

وبناء على ما سبق ذهب بعض العلماء ممن اشترطوا التحدي إلى أن المقصود به التحدي الضمني .

يقول السنوسي: [4] «وليس من شرط المتحدي أن يقول لا يأتي أحد بمثلها، بل يكفي أن يقول آيتي أن يفعل الله كذا فيفعله له. ففي إجابة دعواه دليل على صدقه في مقالته، نعم تعذر صدورها عن مثله إذا كان ينبغي معارضته لا بد منه لا لأجل التحدي، بل لأجل ثبوت الاختصاص، فإن المعجزة لابد أن تكون مختصة بنبي» .

ـ وأما قولهم إن الساحر إذا ادعى النبوة كذبا فإما أن ينسيه الله السحر عندئذ وإما أن لا يفعل عند سحره شيئا في المسحور، وإما أن يقيض له من يعارضه ويبين كذبه، فلا دليل عليه، بل هو أمر مخالف للواقع ومناقض للتاريخ .

فمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي وغيرهم

---

(١) انظر ابن حزم : الفصل جـ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢) ابن تيمية : النبوات ص ١٢١ .

(٣) انظر ابن حزم : الفصل جـ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٤) السنوسى :شرح الكبرى ص ٤٤٩ .

من المتنبئين الكذابين قد أتوا بأمور عجيبة خارقة لعادة أقوامهم، لكن ليست خارقة للعادة خرقا حقيقياً، فمن صدقهم ظن أن هذا مختص بالأنبياء، وكان تصديقه من جهله بوجود هذا لغير الأنبياء، كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة .

وهؤلاء السحرة الكذابين ادعوا النبوة ولم ينسبهم الله السحر وفعل عند سحرهم في المسحور ولم يقيض لهم من يعارضهم حينئذ.

ـ وأما قول الغزالي«وإن لم تكن دعوى فقد يجوز ظهور ذلك على يد فاسق لأنه مقدور في نفسه» (١) .

فجوابه انه وإن كانت دعوى، فقد يجوز أيضا ظهور ذلك على يد الفاسق لأنه مقدور في نفسه ثم إن الغزالي ممن يجوزون على الله تعالى كل مقدور، إلا أن الحديث هنا يجب ألا يكون حديثا عن القدرة الإلهية، فهو تعالى قادر على كل شيء. ولكن يجب أن يكون حديثا عن الحكمة الإلهية والعدل والرحمة . . . .

ـ وأما قولهم إن الله تعالى قد يخرق العادات لا عند دعوى أحد للرسالة كخلق الكون وكعلامات الساعة فلا تكون معجزة لأحد وإن كانت من جنس المعجز فيكون الفرق بينها وبين المعجز الدعوى والتحدي.

فجواب ذلك :

أن المعجزة إنما تفترق عن الخوارق العامة كخلق السموات والأرض بأن الخوارق العامة هذه لا تكون على يد أحد من الخلق بعكس المعجزة التي تكون على يد النبي.

والدليل إما أن يكون مساويا للمدلول عليه وإما أن يكون أخص منه ولا يكون أعم. ولهذا لم يكن للأمور المعتادة هذه دلالة على ما هو أخص فلا تدل على صدق أحد ولا كذبه لا مدعي النبوة ولا غيرها فإنها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق لكن تدل على ما هو أعم منها وهو وجود الرب وكمالاته تعالى فإن وجود ذاته وصفاته ثابت سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه ولا يلزم من عدمه عدم خالقه(٢)

---

(١) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٥ .

(٢) انظر ابن تيمية :النبوات ص ١٧٥ .

وأما علامات الساعة فهي من معجزات الأنبياء وذلك«أنهم أخبروا بها قبل وقوعها فإذا جاءت كما أخبروا كان ذلك من آياتهم ثم إنهم أخبروا بالساعة، فهذه الأشراط مصدقة لخبرهم بالساعة وكل من آمن بالساعة آمن بالأنبياء وكل من كذب الأنبياء كذب بالساعة» [1].

- وأما قولهم إنه تعالى قد يخرق العادات على أيدى الأولياء والصالحين على جهة الكرامة، ولو كان المعجز معجزاً لجنسة لم يصح أن يوجد من جنسه ما ليس بمعجز.

نجيب: هو أنه «قد ذكر غير واحد من العلماء أن كرامات الأولياء معجزات لنبيهم، هى من آيات نبوته، وهذا هو الصواب» [2].

لأنها إنما حصلت ببركة اتباع الرسل فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول [3].

إلا أنه إذا كانت المعجزات منها كبرى ومنها صغرى والأولياء يشاركون الأنبياء في الصغرى منها [4] فلا يكون الفارق بين ما يحدث على يد النبي وما يحدث على يد الولي إلا دعوى النبوة في المعجزة وعدم دعواها في الكرامة، وما رفضناه من قبل هو اعتبار كون الدعوى شرطا في كون الخارق خارقاً دالاً على الصدق.

فاشتراط الدعوى إنما يكون في التفرقة بين خارق حقيقي وآخر حقيقي كالمعجزة والكرامة. لا في التفرقة بين الخارق الحقيقي وغير الحقيقي.

يقول ابن رشد: [5] «وليس في قوة العقل العجيب الخارق للعوائد الذي يري الجميع أنه إلهي أن يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من حيث ما يعتقد أن من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب».

ومن ثم فلا يحتاج الخارق الحقيقي دعوى لتأكيد خارقيته، ولكن قد يحتاجها لبيان الفارق بينه وبين خارق حقيقي آخر.

---

(١) ابن تيمية: النبوات ص ٢١٤. (٢) السابق: ص١٢١.

(٣) ابن تيمية: الفرقان ص ١٢٩. (بتصرف). (٤) انظر ابن تيمية: النبوات ص ٤، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٥) ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة ص ١١٢.

وإذا كنا قد رأينا أنه لا وجه لاشتراط التحدي للأسباب السابقة الذكر، فهناك أيضا من يعارض ذلك ولكن من منطلقات أخرى لا نوافقه عليها .

وذلك كزعم القائل: أنه لما كان التحدي يقتضي تكافؤ الفرص، فإن اعتبار القرآن من عند الله يجعل الفرص غير متكافئة.

وزعمه أنه لو كان القرآن من عند الرسول لكان التحدي أقرب إلى تكافؤ الفرص بالرغم أيضا من تأييد الرسول بالاتصال، في حين أن الشاعر المتحدى ليس مؤيداً إلا بقدرته الإبداعية الخاصة وأنه ليس تنزيها لله أن يقف الإنسان متحديا له في صنعه، وليس احتراما للرسول أن يقف الشاعر متحديا له فيما يبلغ به، ويعلنه للناس من عند الله وأنه كيف يكون التحدي ممكنا لو كانت نتائجه معروفة من قبل وإعلان النتيجة مسبقا بفشل الإنسان والحكم عليه بذلك إلى نهاية الزمان بحرف النفي للتأبيد «لن» وأنه كيف يكون التحدي ممكنا والتهديد بالعقاب قائم سواء في حالة النجاح أم في حالة الفشل؟

واستنكاره أن يكون جزاء قبول المتحدي العقاب لأن ذلك يفت في عضد المتحدي إذا علم النتيجة مسبقاً بأنه خاسر وبأنه سينال العقاب نتيجة على تجرؤه على قبول التحدي والقيام به .

وزعمه أن الشرط الأساسي للتحدي هو القدرة على المعارضة. وأنه لا يقال إن الله أعجزهم عن المعارضة فذلك ضد مبدأ التحدي وتكافؤ الفرص فكيف يطالب القاهر المقهور أن يكون حرا؟ وكيف يطالب المصارع المكتوف اليدين أن يكون نداً ؟ .

ولا يقال أيضاً بصرف الدواعي. فذلك أيضاً بزعمه نقص في شرط التحدي.

فصرف الدواعي بزعمه يعني تدخل إرادة خارجية تقضي على أساس التحدي المتكافئ الأطراف سواء كان صرف الدواعي للخلق أو للنقل .

وإذا كانت الصرفة تعني ارتفاع القوة ومنع المتحدي والحيلولة عن المعارضة، فذلك بزعمه إعلان للنتيجة مسبقا قبل بداية المبارة، لعدم وجود تعادل بين

الخصمين، ولغش في التحكيم، وبالتالي لا يستحق المتحدى وهو في هذا الوضع أي تبكيت ولا يكون عليه تثريب .

كما أن ذلك بزعمه ضد العدل، وقد ثبت من قبل أن العدل أصل من أصول العقيدة بعد التوحيد وكلاهما أصلان عقليان قطعيان لا يخرقان بزعمه بأحد الموضوعات السمعية مثل النبوة في أحد موضوعاتها [1] .

والجواب عن ذلك :

ـ إن قوله(بتكافؤ الفرص) فلا أفهمه، فنحن لا نتحدث عن منافسة ومباراة بين أناس عاديين، نحن نتحدث عن معجزة، ونريد أن نثبت أن هناك شخصاً مؤيداً وآخر غير مؤيد ولابد من فرق بينهما.

ـ وأما قوله إن التحدي يتعارض مع تنزيه الله واحترام الرسول فمبني على المغالطة.

فالإنسان في «حالة التحدي» لا يقف متحديا لله ورسوله، ولكن يقف متحديا لموضوع الدعوى قبل ثبوت مصدره لديه، فإذا ثبت أنه من عند الله، وأن هذا المدعي رسول الله، وجب الإيمان والتسليم والكف عن التحدي .

ـ وأما قوله بأن إعلان(النتيجة) بالفشل منذ البداية يعارض التحدي فلا معنى له، فإن أي تحد يتضمن دعوى فشل الخصم، وهذا هو معنى التحدي(أنا أقدر وأنت لا تقدر)، ونجاح التحدي أو فشله هو الذي يحكم على النتيجة المعلنة منذ البداية بالصدق أو الكذب .

ـ وأما اعتراضه على(إمكان التحدي والتهديد بالعذاب الأخروى قائم سواء في حالة النجاح أو الفشل). فهذا الكلام أيضا مبني على المغالطة، ففي حالة نجاح من يقبل التحدي فلا معنى للتهديد بالعذاب الأخروى، وقد ثبت كذب مدعي النبوة.

وفي حالة فشله فهو إما أن يؤمن فينجو من العذاب وإما أن يكفر فيستحق العذاب .

---

(١) انظر حسن حنفى : من العقيدة إلى الثورة جـ٤ ص ١٨٤ ـ ١٨٧ .

- وقوله«إن العدل أصل من أصول العقيدة بعد التوحيد وكلاهما أصلان عقليان قطعيان لا يخرقان بأحد الموضوعات السمعية مثل النبوة في أحد موضوعاتها».

فهو طعن في السمعيات والسمع فيه من بيان الأدلة العقلية أضعاف ما يوجد في كلام النظار. وبالتالي فلا نسلم إمكان تعارض العقل والنقل القطعيين والمسائل التي يقال إنه قد تعارض فيها العقل والسمع ليست من المسائل البينة المعروفة بصريح العقل، ولا يوجد ذلك إلا في حديث مكذوب موضوع، أو في دلالة ضعيفة غلط المستدل بها على الشرع، وتقديم العقل ممتنع لأن العقل قد دل على صحة السمع[1] ووجوب قبول ما أخبر به الرسول فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ومن يعلم صدق الرسول امتنع مع هذا أن لا يعلم ثبوت ما أخبر به في نفس الأمر، وإذا كان كذلك فإذا قيل له في مثل هذا: لا تعتقد ثبوت ما علمت أنه أخبر به لأن هذا الاعتقاد ينافي ما علمت به أنه صادق كان حقيقة الكلام لا تصدقه لئلا يلزم أن لا تصدقه، فيكون واقعا في المنهي عنه سواء أطاع أو عصى، هذا بالإضافة إلى أن كون الشيء معلوما بالعقل أو غير معلوم بالعقل ليس هو صفة لازمة لشيء من الأشياء، بل هو من الأمور النسبية الإضافية، فإن زيداً قد يعلم بعقله ما لا يعلمه بكر بعقله وقد يعلم الإنسان في حال بعقله ما يجهله في وقت آخر، وأما الشرع فهو في نفسه قول الصادق، وهذه صفة لازمة لا تختلف باختلاف أحوال الناس فإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع لأن العقل مصدق الشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به[2].

وإذا كنا لا نتفق مع تلك الآراء السابقة لأنها تعارض العقل والدين فإنا لا نتفق معها أيضا لأنها تخالف المنهج العلمي السليم في البحث في أبسط أسسه وهو النقل الصحيح.

يقول صاحب تلك الآراء السابقة: «ويثبت الباقلاني قدرة الإنسان على التحدي وأنه لا توجد معجزات على الحقيقة مما أدى إلى عجب ابن حزم من ذلك

---

(١) فنحن مع العقل حتى يثبت الشرع فإن ثبت فالشرع مقدم على العقل.

(٢) انظر ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ص ٦٧: ١٢٦.

فالإنسان غير عاجز حتى على الصعود إلى السماء ولا على إحياء الموتى ولا على خلق الأجسام ولا اختراعها» [1] .

والباقلاني لم يقل هذا الكلام، ولم يثبت القدرة على التحدي ولكنه نفى العجز، ونفي العجز عنده لا يعني إثبات القدرة بل العكس، ففي مفهوم الباقلاني أن إثبات العجز إثبات للقدرة لأن العجز يفترض قدرة سابقة عليه فالعجز عن العجز غير متصور ومن ثم فهو لم ينف العجز إلا لكي ينفي القدرة.

يقول الباقلاني [2] «لو صح أن يعجزوا عنه لصح أن يقدروا عليه. . . وذلك أنه لا يصح عجز الخلق إلا عن ما تصح قدرتهم عليه» .

وإنما تعجب ابن حزم من ربط الباقلاني نفي القدرة بنفي العجز، يقول ابن حزم: [3] «وأطم من ذلك احتجاجه(أي الباقلاني) بأن العجز لا يتم إلا حيث تقع القدرة، ولا ندري في أي لغة وجدوا هذا الكذب أم في أي عقل وجدوا هذا السخف» .

٢٠ - ألا تفتقر إلى آلة :

يقول القاضي عبد الجبار: «إن الحيلة تفتقر إلى آلات وأدوات لو فقدت واحدة منها لم تنفذ، وليس كذلك المعجز» [4] .

وأرى أن القاضي عبد الجبار هنا جانب الصواب وفاته أن معجزة موسى عليه السلام كانت العصا وهى آلة .

وإن قيل ليس في قلب العصا حية افتقار إلى آلة لأن نفس العصا قلبت حية بدون وساطة آلة، فذلك وإن كان صحيحا إلا أن فلق البحر بالعصا معجز استخدم فيه آلة هي العصا، وكذلك تفجير العيون من الحجر معجز استخدم فيه آلة وهي العصا

يقول تعالى [5] **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾** .

---

(١) حسن حنفى : من العقيدة إلى الثورة جـ٤ هامش ص ١٨٨ .

(٢) الباقلانى :البيان ص ٨ : ١٣ .

(٣) ابن حزم : الفصل جـ ٥ ص ١٠٩ .

(٤) القاضى عبد الجبار :شرح الأصول الخمسة ص ٥٧٢.

(٥) الشعراء :٦٣ .

ويقول تعالى:[1] ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ ،والله قادر على أن لا تكون المعجزة بآلة ولكن حكمته اقتضت ذلك .

واستخدام الآلة في المعجزة نجده كذلك في سورة البقرة في قصة إحياء موسى عليه السلام للميت بضربه بجزء من البقرة يقول تعالى [2] ﴿فقلنا اضربوه ببعضها،كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ .

ملاحظات على القسم المعنى من المعجزة

إن إظهار المعجز كما يكون بإتيان غير المعتاد كذلك يكون بمنع الغير عن المعتاد كما إذا قال من يدعي النبوة في مقام التحدي أنا أستطيع القيام وأنتم لا تقدرون عليه،ففعل وعجزوا وكما قال عليه الصلاة والسلام:[3]«قد عصمني ربي» وكما قال نوح عليه السلام: [4] «ثم اقضوا إلي ولا تنظرون» .

ويرى الغزالي أن الصرف عن المقدور من أعظم المعجزات. . .وإن فرض وجود القدرة ففقد داعيتهم وصرفهم عن المعارضة من أعظم المعجزات [5] .

بل إن ابن عربي يرى أن الإعجاز بالصرفة أرفع للبس من غيره،لأن المنع من المعتاد أمر يجربه كل شخص بنفسه،أما الإتيان بغير المعتاد ففيه من الشبهات واللبس كثير ويمثل ابن عربى لذلك بعصا موسى وعصى السحرة،ويقول إن العامة لم تفرق بين الحيات ويمثل لذلك أيضا بإحياء الموتى ويقول:إن الوصول إلى العلم أنه حي في نفس الأمر عزيز [6] .

فكل من الإتيان بغير المعتاد والمنع من المعتاد معجز،إلا أن مسألة التفضيل نسبية تختلف من إنسان لآخر،فقد يفهم دلالة أحد الأدلة من لا يفهم دلالة الآخر،وإن كان أوضح من وجهة نظر غيره .

ويتعلق بالقسم المنعى عدة قضايا:

---

(١) البقرة : ٦٠. (٢) البقرة : ٧٣ .

(٣) رواه الترمذى فى سننه فى الباب (٤) من تفسير سورة المائدة (٤) يونس : ٧١ .

(٥) انظر الغزالى :الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣٠ . (٦) انظر ابن عربى: الفتوحات المكية جـ٢ ص٣٧٤ .

القضية الأولى : هل المعجز كـما يكون بالفعل يكون بعدم الفـعل؟ أو كما اصطلح على التعبير عن ذلك بقولهم: هي فعل الله أو ما يقوم مقامه .

أم أن المعجز إنما يكون في الفعل فقط، ويؤول غيره إليه؟وهناك اتجاهان:

«فرد ابن دهاق المعـجزة في القسم المنعى إلى العلم بذلك والإخـبار به على وفق الواقع»[1] .

وأجاب إمام الحرمين عن المثال السابق «بأن القعـود المستمر مع محاولة القيام هو المعجز فرجع المعجز إلى الفعل»[2]، وكذلك يقول إن الترك على خلاف المعتاد هو فعل، وهو معجز .

وانتقد ذلك السنوسي وعلل ذلك بأن التـحدي لم يقع بما ذكر في الجوابين، وإنما وقع في الفرض بعدم الفعل. .ثم قال وقد يجاب عنه بأن التحدى في المعجزة إما مطابقة وهو واضح أو لزوما كالعلم والخبر في المثل المذكور، وفيه نظر[3] .

وأنا أرى أن الخلاف شكـلي ولا أهمية له، وذلك أنه لاخـلاف على أن في قولـه ﷺ «قد عصـمني ربي» وفي قـوله تعالى على لسـان نوح عليه السـلام(ثم اقضـوا إلي ولا تنظرون) إعجازاً وهو المهم، وإنما كـان الخلاف في زواية النظر إلى المثالين السابقين .

واعتقد أن كلتا النظرتين صحيحة، ولا أرى تعارضا، بل أرى تكاملا .

ومن ثم فلا داعي لوصف المعجـزة بأنها فعل أو عدم فعل أو ما يـقوم مقام فعل، بل الأحرى والأدق، وصفها بأنها « أمر» .

والقضية الثانية : هل قيد ظهـور المعجزة على يد مدعي النبـوة موجود في القسم المنعي؟ .

فيـرى ابن كمال أن قـيد الظهور على يد مـدعي النبوة لا يوجـد في القسم

---

(١) السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٤٢ .

(٢) الجوينى : الإرشاد ص ١٦٢ .

(٣) أنظر السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٤٢:٤٤٣ .

المنعي، لأن منع المنكر عن وضع يده على رأسه مثلا مرجعه إلى عدم خلق القدرة عليه، فلا نسبة له إلى مدعي النبوة لا بالصدور عنه ولا بالظهور على يده. فقط له نسبة إليه من حيث أنه ظهر على وفق دعواه مقرونا بتحديه [1].

وأرى أن المقصود من قولهم إن المعجزة تظهر على يد مدعي النبوة، أي تظهر من جهته منسوبة إليه مصدقة له: وبالتالي فيرد قيد ظهور المعجزة على يد مدعي النبوة دائما.

والقضية الثالثة: هل القسم المنعى يعتبر خارق للعادة؟أم أن وصف المعجزة بأنها خارق للعادة وصف غير دقيق لأنه غير موجود في القسم المنعى.

يقول ابن كمال: [2] «القسم المنعى... المعجز فيه إنما هو المنع لا ما عجز المنكرون عن الإتيان بمثله، فإنه أمر عادي غير خارق للعادة».

ويقول الجويني: [3] فإن قيل: إن القعود معتاد والمعجز خارق للعادة، قلنا: القعود المستمر مع محاولة القيام في أقوام لا يعدون كثرة خارق للعادة».

فالقسم المنعى من المعجزة كما يتبين مما سبق خارق للعادة.

والقضية الرابعة: هل يمكن أن يكون إعجاز القرآن من القسم المنعى؟

وهناك آراء في ذلك الرأي الأول أن وجه إعجازه كونه في أعلى مراتب البلاغة والرأي الثاني أنه إنما وجب إعجازه لأن الله تعالى منع الخلق من القدرة على معارضته فقط، فأما الطائفة التي قالت إنما إعجازه لأنه في أعلى رتب البلاغة فإنهم شغبوا في ذلك، بأن ذكروا آيات منه مثل قوله تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾[4] ونحو هذا، وموه بعضهم بأن قال: لو كان ما تقولون من أن الله تعالى منع من معارضته فقط لوجب أن يكون أغث ما يمكن من الكلام، فكانت تكون الحجة بذلك أبلغ.

---

(١) انظر ابن كمال: رساله في حقيقة المعجزة ودلالتها على صدق مدعي النبوة، ضمن مجموعة الرسائل جـ ١ ص١٣٨.

(٢) السابق جـ ١ ص ١٣٨.

(٣) الجويني: الإرشاد ص ٢٦٢.

(٤) البقرة: ١٧٩.

وينتقد ابن حزم هذا الرأي من وجوه :

أولها: أنه قول بلا برهان لأنه يعكس عليه قول نفسه فيقال، بل لو كان إعجازه لكونه في أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه، لأن هكذا كان يكون كل من في أعلى طبقة وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود.

وثانيها: أنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل، ولا يقال له لم عجزت بهذا النظم دون غيره، ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره؟. ولم قلبت عصا موسى عليه السلام حية دون أن تقلبها أسداً ؟

وهذا كله لم يوجبه قط عقل وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط.

فالقرآن ليس من نوع كلام المخلوقين لا من أعلاه ولا من أدناه، ولا من وسطه[1]

ولكنه خارج نطاق قدرة الخلق، وليس ذلك بالصرفة ولكن بإعجازه الذي هو خارج نطاق قدرة الخلق، والصرفة إنما تكون عن المقدور، والخلق لا يقدرون على مثل القرآن سواء قبل البعثة أو أثناءها أو بعدها، فلم يرو أن أحداً جاء بمثله أبداً، ولا يمكن بالطبع أن يكون الصرف عن الهمة بدليل معارضات مسيلمة، وغيره ممن ادعوا النبوة .

---

(١) انظر ابن حزم : الفصل جـ ٣ ص ٢٨ .

الفصل الثالث
حكمة المعجزة

إن لآيات الأنبياء عليهم السلام ـ التي أيدهم الله تعالى بها حكما كثيرة.

فهي دليل على وجوده تعالى فلا يعقل الإرسال من غير مرسل وهي دليل حسي على رحمته. وعدله، وحكمته واختياره تعالى في جميع أفعاله وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له، لا حاكمة عليه ولا مقيدة لإرادته وقدرته .

وهي دليل على صدق رسل الله تعالى فيما يخبرون عنه بوحيه تعالى .

وهي قد تهدف أساسا للهداية أو الرحمة أو الإكرام أو الإنذار أو الإهلاك[1]

وتهدي عقول البشر برؤيتها إلى الإيمان بالغيبيات[2] وسعة الممكنات وإلى أن كون الشيء بعيداً عن الأسباب المعتادة والسنن المعروفة لا يقتضي أن يكون محالاً يجزم العقل بعدم وقوعه فعدم العلم ليس علما بالعدم، فعدم علمنا بما وراء الطبيعة بحواسنا لا يعني عدم وجوده، فالمعجزة الحسية تؤكد للعقل حدوده قائلة له إن لك حدوداً لا تتجاوزها وأن هناك ما لا يمكنك إدراكه، فلا تنكره، وقد عرفت أن لك حدوداً فها هو زكريا عليه السلام لما رأى كرامة الله لمريم عليها السلام و﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصورا ونبيا من الصالحين. قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾[3]

والمعجزة توقظ الشعور الإنساني وتحرره من سيطرة القوى المادية والسياسية، وغيرها مؤكدة للإنسان قدرته على الفعل، وتخطي العقبات، طالما أن الله معه، يؤيده وينصره وأنه ينبغي له أن لا يخشى إلا الله، فكل ما عداه أسباب مخلوقة له تعالى

---

(١) انظر أقسام المعجزة في الفصل الثاني من الباب الثالث .

(٢) فإن صدق معجزة الإنباء بالغيب مثلاً لبرهان على صدق ما يخبر به الرسول من غيب عن الله والملائكة والرسل الأولين واليوم الآخر .

(٣) آل عمران : ٣٧ ، ٤٠ .

يمكنه التصرف فيها كيفما شاء فها هم سحرة فرعون لما رأوا المعجزة تحرروا من سيطرة المادة عليهم، وكانوا قد سألوا فرعون الأجر من قبل حين قالوا ﴿**أن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين**﴾[1] .

وتحرروا من خوفهم من فرعون ﴿**فألقى السحرة سجدا قالوا ءامنا برب هارون وموسى قال آمنتم له قبل أن ءاذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى .قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا.إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى.إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموتُ فيها ولا يحى.ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى**﴾[2] فالمعجزات الحسية تتضمن الكثير من الإشارات الرمزية الدقيقة[3] .

ومعجزات الرحمة كالشفاء مثلا وعد وعلامة«أي أنها ليست نهائية لأنها خلاص عدد محدود من الناس(كان هناك مرضى كثيرون في أيام المسيح عليه السلام فشفى عددا قليلا منهم)، وهي خلاص فردي - في حين أن الله يشاء أن يشمل الخلاص العالم كله - وخلاص محدود النوعية أيضاً لأنه خلاص زمني يشفي جسدا فانيا، المعجزة وعد بالخلاص النهائي، وانتصار على الشر يشمل كياننا كله وللأبد[4]

هذا ما نراه بوضوح في حادثة البرص العشرة(المذكورة في الإنجيل)، فالعشرة نالوا الشفاء، لكن المسيح عليه السلام قال للذي عاد ليشكره«قم وامض إيمانك خلصك»[5] أي أن الشفاء لم يكن الخلاص الحقيقي بل علامة له، وأن الأبرص العاشر وحده وجد الخلاص لأن الإيمان مكنه من الاعتراف بعطية الله التي منحه إياها بواسطة المسيح عليه السلام[6] .

---

(١) الأعراف : ١١٣ . (٢) طه : ٧٠،٧٥ . (٣) انظر مبحث التأويل الرمزى .

(٤) فى أوساط القرن الأول الشعبية كان الناس يعيشون فى خوف دائم من الشياطين أو الأرواح النجسة التى كانوا ينسبون إليها معظم الشرور التى يعانونها فالأمراض العقلية والعاهات،منذ الولادة والعيوب والخطايا المتنوعة كان لكل منها مسببها الشيطانى،وكانوا يضعون قوائم مفصلة بها مع نظام تسلسلى ورئيس يدعى بليعار أو مستيما أو شيطان » . (انظر المعجزات فى الإنجيل ص ٣٨) .

(٥) إنجيل لوقا ، الإصحاح (١٧) آية (١٩) .

(٦) انظر إتيان شاربنتييه وآخرون :المعجزات فى الإنجيل ص ٤٦ .

فالآيات الإعجازية تظهر بأعمال واقعية الخلاص الذى يبشر به رجال الله .

والمعجزة«دليل على سمو شأن الشريعة الأدبية وأهميتها. فإننا نرى من المعجزات أن ثبات الشرائع الطبعية أمر ثانوي عند الله بالنسبة إلى ثبات الشريعة الأدبية، وأنه لا يتأخر عن خرق النواميس الطبعية لأجل غايات أدبية» [1] .

فالمعجزة تعلمنا أنه أمام المبدأ أمام القيم الروحية لا أهمية ولا قيمة لمادة ما من مواد الطبيعة، ومن ثم فهى تهون علينا أمر التضحية بالمال والجسد من أجل قيم الروح العليا .

(١) نخبة من علماء النصارى : علم اللاهوت النظامى ص ٥٠٧ .

obeikandl.com